المجاعة في مصر في العصر الأيوبي كما صورها الرحالة عبد اللطيف البغدادي

الديب عطية علي عثمان
قسم التاريخ والحضارة ، كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ، أسيوط ، مصر
البريد الإلكتروني : eldeabothman.47@azhar.edu.eg

الملخص :

إن الله – سبحانه وتعالى – منَّ على مصر بنهر النيل ، ذلك النهر الذي ارتبطت به حياة المصريين منذ القدم ، حتى وصف هيرودوت مصر بأنها هبة النيل ، هذا النهر الذي مد مصر بالماء الوفير فقامت فيها الحضارة وتقدمت تقدما كبيراً ، ومع ذلك فقد تعرضت مصر في تاريخها للعديد من المجاعات والتي صاحبتها الأوبئة وانتشار الأمراض نتيجة قلة ماء النيل في بعض السنوات ، ومن بين تلك المجاعات التي تعرضت لها مصر المجاعة في العصر الأيوبي في عامي ٥٩٧ ، ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ ، ١٢٠٢ م، وقد زار الرحالة عبد اللطيف البغدادي مصر قبل تلك المجاعة فوصف أحوالها قبل وقوع المجاعة ، ثم وصف المجاعة وصفا دقيقا في كتاب أطلق عليه (الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر) ، وهذا الكتاب مع ما له من قيمة تاريخية كبيرة ، لأنه يرصد لما سمعه المؤلف من شهود العيان ، وكذلك يرصد لما شاهده وعاينه المؤلف، إلا أن رواياته في الكتاب لا تقبل على علاتها ، فقد احتوت على العديد من المبالغات غير المقبولة ، ولهذا جاءت هذه الدراسة للرد على المبالغات الواردة بالكتاب .

الكلمات المفتاحية : المجاعة – مصر – عبد اللطيف البغدادي – العصر الأيوبي.

The Famine In Egypt In The Ayyubid Era As Depicted By The Traveler Abd Al-Latif Al-Baghdadi

Eldeb Atiya Ali Osman

Department of Islamic History , Arabic Language , Al- Azhar University , Assiut , Egypt .

Email : eldeabothman.47@azhar.edu.eg

Abstract :

God - Glory be to Him - is from Egypt on the Nile, that river that the lives of Egyptians have been associated with since ancient times, until Herodotus described Egypt as the gift of the Nile, this river that provided Egypt with abundant water and civilization was established in it and made great progress . However, in its history, Egypt was subjected to many famines, which were accompanied by epidemics and the spread of diseases due to the lack of Nile water in some years, Among those famines to which Egypt was subjected was famine in the Ayyubid period in 597 AH / 598 AH / 1201, AD 1202, The traveler Abdul Latif Al-Baghdadi visited Egypt before that famine, and he described its conditions before the famine occurred, then he described the famine accurately in a book called (the statement and consideration of the witnessed incidents and incidents in the land of Egypt). And this book, with its great historical value, because it monitors what the author heard from eyewitnesses, and also monitors what the author saw and examined, but his novels in the book are not accepted as such, It contained many unacceptable exaggerations, and this is why this study came to respond to the exaggerations mentioned in the book .

Keywords : The famine , Egypt , Abd al-Latif al-Baghdadi , the Ayyubid era .

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ثم أما بعد :

إن الله – سبحانه وتعالى – منّ على مصر بنهر النيل ، ذلك النهر الذي ارتبطت به حياة المصريين منذ القدم ، حتى وصف هيرودوت مصر بأنها هبة النيل ، هذا النهر الذي مد مصر بالماء الوفير فقامت فيها الحضارة وتقدمت تقدما كبيرا .

ومع ذلك فقد تعرضت مصر في تاريخها للعديد من المجاعات والتي صاحبتها الأوبئة وانتشار الأمراض نتيجة قلة ماء النيل في بعض السنوات ، ومن بين تلك المجاعات التي تعرضت لها مصر المجاعة في العصر الأيوبي في عامي ٥٩٧ ، ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ ، ١٢٠٢ م، وقد زار الرحالة عبد اللطيف البغدادي مصر قبل تلك المجاعة فصور أحوالها قبل وقوع المجاعة ، ثم وصف المجاعة وصفا دقيقا في كتاب أطلق عليه (الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر) ، وهذا الكتاب مع ما له من قيمة تاريخية كبيرة لأنه يرصد ما سمعه المؤلف من شهود العيان ، وكذلك يرصد ما شاهده وعاينه ، إلا أن رواياته في الكتاب لا تقبل على علاتها ، فقد احتوت على العديد من المبالغات غير المقبولة؛ ولهذا جاءت هذه الدراسة للرد على المبالغات الواردة بالكتاب .

وقد قسمت البحث إلى (مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة وفهرس بالمصادر والمراجع) .

فأما التمهيد : فقد ذكرت فيه ترجمة للرحالة عبد اللطيف البغدادي .

والمبحث الأول بعنوان : (تفاصيل مشاهدات عبد اللطيف البغدادي في مصر) تناولت فيه محتوى رحلته البغدادي ومشاهداته في مصر وقسمته إلى:

١- تفاصيل ما قبل المجاعة .

٢ - تفاصيل المجاعة كما صورها عبد اللطيف البغدادي.

والمبحث الثاني: بعنوان (الحقيقة والمبالغة في روايات عبد اللطيف البغدادي عن المجاعة) : وفندت فيه المبالغات غير المقبولة في روايات عبد اللطيف البغدادي وغيره من المؤرخين .

ثم خاتمة للبحث ذكرت فيها أهم النتائج التي توصل لها البحث ثم فهرسا بالمصادروالمراجع مرتبا ترتيبا هجائيا ، ثم فهرسا لموضوعات البحث .

هذا وبالله التوفيق ،،،

التمهيد

ترجمة الرحالة عبد اللطيف البغدادي

١ – اسمه :عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي بن أبي سعد[١] .

٢ – كنيته : أبو محمد[٢] ، ويعرف أيضا بابن اللبـــــاد [٣]،

---

(١) ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين، أبو العباس ابن أبي أصيبعة ت ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م) : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، المحقق: الدكتور نزار رضا ، ط / دار مكتبة الحياة – بيروت ٦٨٣ ، تاج الدين السبكي (تاج الدين ابن علي بن عبد الكافي السبكي ت ٧٧١ هـ / ١٣٧٠ م): طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: د/ محمود محمد الطناحي، د/ عبد الفتاح محمد الحلو، ط/ هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ ٨ / ٣١٣ السيوطي(جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ٩١١هـ / ١٥٠٥ م): بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط/ المكتبة العصرية – صيدا ٢ / ١٠٦ .

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء، ٦٨٣ ، الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧ م) :العبر في خبر من غبر،تحقيق: د/ صلاح الدين المنجد ط/ مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٤ م ٥ / ١١٥،الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) : الوافي بالوفيات ط/دار إحياء التراث – بيروت١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م ١٩ / ٧٣ ، البغدادي (إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي ت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩ م): هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، ط/ طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية استانبول ١٩٥١ ، ١ / ٦١٤ .

(٣) ابن شاكر (محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣ م) فوات الوفيات ، تحقيق : إحسان عباس ، ط/ دار صادر – بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٤م ٢/ ٣٨٥ ، الصفدي : والوافي بالوفيات ١٩/ ٧٣ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، تحقيق: مجموعة محققين بإشراف شعيب الأرناؤوط ، ط/ مؤسسة الرسالة =٢٢ / ٣٢٠، حاجي خليفة(مصطفى بن عبد الله القسطنطيني العثماني ت ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧ م):سلم الوصول إلى طبقات الفحول ، تحقيق: محمود عبد القادر الأرناؤوط تقديم: أكمل الدين إحسان أوغلي، ط/ مكتبة إرسيكا، إستانبول – تركيا ، ٢٠١٠ م،٤/ ٩٨، خير الدين الزركلي : الأعلام قاموس تراجم لاشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط/ دار العلم للملايين – بيروت ، الطبعة الخامسة ١٩٨٠م ٤ / ٦١ .

ابن نقطة [١] .

٣- لقبه : لقب بموفق الدين[٢] ، ويلقب أيضا بالمطحن [٣]، وبالمطجن [٤]

(١) الزركلي : الأعلام ٤ / ٦١ ، علي الرضا قره بلوط – أحمد طوران قره بلوط : معجم التاريخ «التراث الإسلامي في مكتبات العالم (المخطوطات والمطبوعات) ، ط/ دار العقبة، قيصري – تركيا ، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م ٢/ ١٨٧٠ .

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ٦٨٣ ، اليونيني (قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد اليونيني ت ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م): ذيل مرآة الزمان ، بعناية: وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م ، ٢ / ١٨٠ ، ابن شاكر: فوات الوفيات ٢ / ٣٨٥ ، ادوارد فنديك: اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ، ط/ دار صادر – بيروت ، ١٨٩٦م ، ص ٨٤ يوسف بن إليان بن موسى سركيس ت ١٣٥١هـ / ١٩٣٣ م) : معجم المطبوعات العربية والمعربة ، ط / مطبعة سركيس – مصر ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٨ م . ص ١٢٩٢.

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٢ / ٣٢١، ابن حجر العسقلاني (احمد بن علي بن محمد ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م): نزهة الألباب في الألقاب ، تحقيق : عبد العزيز محمد بن صالح السديري ، ط/ مكتبة الرشد – الرياض ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م ٢ / ١٨٣ .

(٤) ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) : معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) ، تحقيق : إحسان عباس ، ط/ دار الغرب الإسلامي– بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م ٤ / ١٥٧١، القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م):إنباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط/ دار الفكر العربي – القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية – بيروت ، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٢م ٢ / ١٩٣، ابن شاكر : فوات الوفيات ٢ / ٣٨٥ ، الصفدي : الوافي ١٩ / ٧٣ .

بالجيم ، كما لقب بالبغدادي [١].

٤-**مولده**: ولد في مدينة بغداد [٢] بدار جده بدرب الفالوذج [٣]، في أحد الربيعين سنة سبع وخمسين وخمسمائة[٤].

٥- **نشأته وطلبه العلم**: نشأ عبد اللطيف البغدادي نشأة علمية حيث تربي في حجر شيوخ عصره بعيدا عن حياة اللهو واللعب وأكثر وقته يقضيه في سماع الحديث ، فنال إجازات من مشايخ بغداد وخراسان والشام ومصر ، ثم بدأ بتعلم القرآن الكريم والخط ودراسة كتب الفصحى والمقامات على حد تعبيره [٥].

---

(١) ذكر ذلك كل مصادر الترجمة ومنها : الذهبي : العبر ٥ / ١١٥ ، السبكي : طبقات الشافعية ٨ / ٣١٣، الغساني (الملك الأشرف إسماعيل بن العباس الغسّاني ت٨٠٣هـ / ١٤٠١ م) : العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك ، تحقيق: شاكر محمود عبد المنعم ، ط/ دار البيان – بغداد / دار التراث الإسلامي ، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م ص ٤٥٠ ، السيوطي : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط/ دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي وشركاه – مصر ، الطبعة : الأولى ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م ١ / ٥٤١ .

(٢) ابن شاكر : فوات الوفيات ٢ / ٣٨٥ ، فنديك : اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ، ٨٤ ،

(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ٦٨٣ ، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ٢ / ١٨٠ .

(٤) الصفدي : الوافي بالوفيات ١٩ / ٧٣ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٢ / ٣٢٠ ، ابن قاضي شهبة (أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة ت ٨٥١ هـ / ١٤٤٨م) : طبقات الشافعية ، تحقيق : د. الحافظ عبد العليم خان ، ط/ عالم الكتب – بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ٢ / ٧٨ .

(٥) وهذا مما نقله ابن أبي أصيبعة من خطة . راجع : عيون الأنباء ، ٦٨٣ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ١٩ / ٧٥ .

ولما شب وترعرع أجلسه والده في مجالس العلم على علماء عصره فحضر مجالس أَبِي الفَتْحِ بنِ البَطِّيِّ، وَأَبِي زُرْعَةَ المَقْدِسِيِّ، وَالحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ البَطَلْيَوْسِيِّ، وَيَحْيَى بنِ ثَابِتٍ، وَشُهْدَةَ الكَاتِبَةِ، وَأَبِي الحُسَيْنِ عَبْدِ الحَقِّ، وَأَبِي بَكْرٍ ابنِ النَّقُّوْرِ، وَجَمَاعَةٍ(١) .

وكان مجتهدا كثير الاشتغال بالعلم حتى أنه كان لا يضيع أوقاته إلا في مدارسة العلم وذكر ذلك ابن أبي أصيبعة حيث قال : "وكان الشيخ موفق الدين عبد اللطيف كثير الاشتغال لا يخلي وقتا من أوقاته من النظر في الكتب والتصنيف والكتابة ، والذي وجدته من خطه أشياء كثيرة جدا بحيث أنه كتب من مصنفاته نسخا متعددة ، وكذلك أيضا كتب كتبا كثيرة من تصانيف القدماء "(٢).

وتلقى العلوم عل مشاهير علماء عصره (٣) ، كما تتلمذ عليه العديد من العلماء لأنه زار وَحَدَّثَ في بلاد عديدة فسمع منه الكثير من طلاب العلم في كل من : دِمَشْقَ، وَمِصْرَ، وَالقُدْسِ، وَحَلَبَ، وَحَرَّانَ، وَبَغْدَادَ(٤).

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٢ / ٣٢٠

(٢) ابن أبي أصيبغة : مصدر سابق ص ٦٨٣ .

(٣) مثل : أَبِي الفَتْحِ بنِ البَطِّيِّ، وَأَبِي زُرْعَةَ المَقْدِسِيِّ، وَالحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ البَطَلْيَوْسِيِّ، وَيَحْيَى ابنِ ثَابِتٍ، وَشُهْدَةَ الكَاتِبَةِ، وَأَبِي الحُسَيْنِ عَبْدِ الحَقِّ، وَأَبِي بَكْرٍ بنِ النَّقُّوْرِ، وكمال الدين عبد الرحمن الأنباري ، وابن فضلان ... وغيرهم . الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٢٠ .

(٤) ومن تلاميذه : الزَّكِيَّانِ البِرْزَالِيُّ، وَالمُنْذِرِيُّ، وَالشِّهَابُ القُوْصِيُّ، وَالتَّاجُ عَبْدُ الوَهَّابِ ابنُ عَسَاكِرَ، وَكَمَالُ الدين ابن العَدِيْم، وَابْنُهُ القَاضِي أَبُو المَجْدِ،وَالأَمِيْنُ أَحْمَدُ بنُ الأَشْتَرِيِّ، وَالكَمَالُ أَحْمَدُ ابْنُ النَّصِيْبِيِّ، وَالجمَالُ ابْنُ الصَّابُوْنِيِّ، وَالعِزُّ عُمَرُ بنُ الأُسْتَاذِ، وَخُطلبَا وَسُنْقُرُ مَوْلَيَا ابْنِ الأُسْتَاذِ، وَعَلِيُّ بنُ السَّيْفِ التَّيْمِيُّ،وَيَعْقُوْبُ بنُ فَضَائِلَ، وَستُّ الدَّارِ بِنْتُ مَجْدِ الدِّيْنِ ابْنِ تَيْمِيَةَ، ... وَآخَرُوْنَ . الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٢ / ٣٢١ .

٦ - رحلاته : أراد عبد اللطيف البغدادي أن يستزيد من العلوم خارج بغداد لذا قام بعدة رحلات بعد عام ٥٨٥ هـ / ١١٨٩م وفي هذا يقول : "ولما كان في سنة حيث لم يبق ببغداد من يأخذ بقلبي ويملأ عيني ويحل ما يشكل علي دخلت الموصل" [١] ، وبذا بدأ البغدادي ترحاله الطويل متنقلا بين دمشق والقدس والقاهرة وحلب وبلاد الروم ومنغوليا ؛ فتوجه أولا إلى بلاد الشام فالتقى بالسلطان صلاح الدين الأيوبي عند عكا، ثم التقى ببهاء الدين بن شداد قاضي العسكر ، ثم التقى بالقاضي الفاضل فكتب له ورقة صغيرة إلى وكيله بمصر ابن سناء الملك ، فلما وصل القاهرة استقبله ابن سناء الملك استقبالا حسنا وأسكنه بدارا وجعل له راتب وطعام وتوالت عليه الهدايا عندما عرف بأنه ضيف القاضي الفاضل [٢] .

ولم يلبث عبد اللطيف البغدادي أن ذهب إلى القدس لملاقاة صلاح الدين الأيوبي الذي توفي عام ٥٨٩ هـ/ ١١٩٣ م فاضطر للإقامة بدمشق حتى جاء العزيز عثمان بن صلاح الدين بعساكره من مصر وحاصر أخاه الفاضل بالشام ، وعند رجوع العزيز عثمان إلى مصر اصطحب معه عبد اللطيف البغدادي وعينه أستاذا بالجامع الأزهر لتدريس الطب والفلسفة واستمر حتى توفي الملك العزيز عثمان في عام ٥٩٥هـ/١١٩٩ م.

وامتدت بالرحالة عبد اللطيف البغدادي الإقامة في القاهرة حيث حضر المجاعة الكبرى التي حلت بمصر ، واجتمع في مصر بالعالم اليهودي الشهير بابن ميمون ، وكان في النهار يقرئ الناس بالجامع الأزهر ، وفي الليل يشتغل على نفسه [٣]،وفي تلك الفترة ألف كتابه "الإفادة والاعتبار" وفصول الكتاب تبين مدى

---

(١) ابن أبي أصيبغة : مصدر سابق ص ٦٨٦ .

(٢) الصفدي : الوافي ١٩ / ٧٧ .

(٣) فنديك :اكتفاء القنوع ، ٨٤ .

تقلب الأحوال في مصر من النقيض إلى النقيض أثناءإقامةهذا الرحالة بمصر، إذ أوحى إليه رغد العيش قبل مجاعة عام ٥٩٧هـ / ١٢٠١م أن يكتب عما في مصر من نباتات وحيوان وآثار قديمة ومبان معاصرة ، ثم داهمته المجاعة وانتشار الوباء فافرد فصلين في كتابه عن أحداثها .

ثم غادر مصر وتوجه إلى القدس وأقام به مدة يعلم الناس بالمسجد الأقصى، ثم توجه إلى دمشق في سنة أربع وستمائة، ودرس في الجامع الأموي ، وكان يأتيه خلق كثير يتعلمون منه ويتلقون عليه أصناف من العلوم، ثم سافر إلى حلب وقصد بلاد الروم وأقام بها سنين كثيرة في خدمة الملك علاء الدين داود بن بهرام، ونال منه عطاء جزيلا ، وصنف باسمه عدة مصنفات، ثم توجه إلى ملطية وعاد إلى حلب وتوفي ببغداد[١].

٧ - **مؤلفاته**[٢]: ألف عبد اللطيف البغدادي العديد من المؤلفات ، والتي تقارب المائتي مؤلف [٣] بينما ذكر له ابن أبي أصيبعة اكثر من مائة وخمسين مؤلَفا ما

(١) ابن شاكر : فوات الوفيات ٢ / ٣٨٧ ، ٣٨٨ .

(٢) عن مؤلفاته ينظر : ياقوت الحموي : معجم الأدباء ٤ /١٥٧٣ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ٦٩٣- ٦٩٦ ، ابن شاكر: فوات الوفيات ٢ / ٣٨٦ ،٣٨٧، الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٢ / ٣٢٣ ، حاجي خليفة : كشف الظنون ١/ ٦٨٥ ، ٧١٤ ، ٢ / ١٢٦٨ ، ١٧٩٤ ، البغدادي : هدية العارفين ١ / ٦١٤ - ٦١٦ ، سركيس : معجم المطبوعات ، ١٢٩٣ ، فنديك : اكتفاء القنوع ، ٨٥ ، علي الرضا قره بلوط: معجم التاريخ ٢/ ١٨٧٠ ، ١٨٧١ .

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ٢ / ١٨٠ .

بين رسالة ومقالة وكتاب في مجالات العلم المختلفة [١]، ومنبين هذه الكتب الموجودة في مكتبات العالم [٢]:

الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، تفسير تقدمة المعرفة لأبقراط- في الطب ، حاشية على تصريح المكنون- في الطب ، رسالة في المعادن وإبطال الكيمياء- في الطبّ ، شرح الفصول لأبقراط- في الطبّ ، شرح قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهر ، الطبّ النبوي ، الطبّ من الكتاب والسنة ، الفصول المنتزعة من كلام الحكماء

- الفصول المنتزعة الطبية ، كتاب ما بعد الطبيعة ، كلام على شيئ مما قاله إبن خطب الري على بعض كتاب القانون لإبن سينا- في الطبّ ، الكناش- في الطبّ ، المجرد - في غريب الحديث ، المغني الجلي في الحساب الهندي ، مقالة على حال إبن خطيب الري في تفسير سورة الإخلاص ، مقالة عن ماهية المكان بحسب رأي ابن الهيثم ، مقالة في مجادلة الحكيمين الكيميائي والنظري ، مقالة في المرض المسمى ديابيطس- في الطبّ ، مقالة في المزاج- في الطب، كتاب النصيحتين من عبد اللطيف بن يوسف إلى الأطباء، وغيرها العديد من المؤلفات .

٨ - **صفاته الخلقية**: كان قصير القامة [٣] ، نحيل الجسم دميم الخلقة قليل لحم الوجه[٤] ، لقبه تاج الدين الكندي بالجدي المطجن لرقة وجهه

---

(١)عيون الأنباء ٦٩٣- ٦٩٦ .

(٢) ذكر علي الرضا قرة تفاصيل هذه المؤلفات وأماكن وجودها في مكتبات العالم . معجم التاريخ ٢ / ١٨٧٠ ، ١٨٧١ .

(٣) القفطي : إنباه الرواة ٢/ ١٩٤ .

(٤) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ٤ / ١٥٧١ ، ابن شاكر : فوات الوفيات ٢ / ٣٨٥ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٢ / ٣٢١ .

وتجعده ويبسه[١].

٩- صفاته الخُلقية: كان متحليا بالفضائل مليح العبارة[٢] ، كما وكان أحد الأذكياء المتضلعين من الآداب والطب وعلم الأوائل إلا أن دعاويه كانت أكثر من علومه[٣] .

١٠ - مذهبه : كان – رحمه الله – شافعي المذهب [٤] .

١١- آراء العلماء فيه: أثنى الكثير من العلماء على عبد اللطيف البغدادي ومدحوه ، ومنهم:

ياقوت الحموي حيث قال عنه: "الأديب الحكيم المتكلم الفيلسوف " [٥]، وكذلك مدحه ابن أبي أصيبعة فقال : " " كان مشهورا بالعلوم متحليا بالفضائل مليح العبارة كثير التصنيف ، وكان متميزا في النحو واللغة العربية عارفا بعلم الكلام والطب، وكان قد اعتنى كثيرا بصناعة الطب لما كان بدمشق واشتهر بعلمها، وكان يتردد إليه جماعة من التلاميذ وغيرهم من الأطباء للقراءة عليه" [٦]، وقال عنه ابن شاكر الكتبي: " وكان أحد الأذكياء المضلعين من الآداب والطب وعلم الأوائل " [٧]، وقال عنه الصفدي: " النحوي اللغوي المتكلم الطبيب الفيلسوف " [١]، وأثنى

(١) ابن شاكر : فوات الوفيات ٢/ ٣٨٥ .

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء، ٦٨٣ .

(٣) الصفدي : الوافي بالوفيات ١٩ / ٧٣ .

(٤) الصفدي : الوافي بالوفيات ١٩ / ٧٣ ، السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ٨ / ٣١٣ ، ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ٢ / ٧٨ .

(٥) معجم الأدباء ٤ / ١٥٧١ .

(٦) عيون الأنباء ، ٦٨٣ .

(٧) فوات الوفيات ٢ / ٣٨٥ .

عليه قطب الدين اليونيني فقال : " كان عالماً بالنحو واللغة وعلم الكلام والطب " [٢] ، كما أثنى عليه الذهبي فقال : " الشَّيْخُ، الإِمَامُ، العَلاَّمَةُ، الفَقِيْهُ، النَّحْوِيُّ، اللُّغَوِيُّ، الطَّبِيْبُ، ذُو الفُنُوْنِ " [٣]، وذكر ثناء بعض العلماء عليه فقال : " وَقَالَ الدُّبَيْثِيُّ: غَلَبَ عَلَيْهِ عِلْمُ الطِّبِّ وَالأَدبِ، وَبَرَعَ فِيْهِمَا. وَقَالَ ابْنُ نُقْطَةَ: كَانَ حَسَنَ الخلقِ، جَمِيْلَ الأَمْرِ، عَالِماً بِالنَّحْوِ وَالغَرِيبينِ، لَهُ يَدٌ فِي الطِّبِّ" [٤] كما مدحه ابن قاضي شهبه وذكر فيه كلام الذهبي [٥] ، كما مدحه تاج الدين السبكي فقال عنه : " نحوي لغوي متكلم طبيب خبير بالفلسفة " [٦] ، وقال عنه الغساني : " النحوي اللغوي الطبيب الفيلسوف الإخباري ...، تفرد في وقته، وصنف التصانيف، وتخرج به الطلبة " [٧]، وكذلك مدحه السيوطي قائلا : " نحوي لغوي متكلم ، طبيب خبير بالفلسفة " [٨]، وقال عنه أيضا : " كان عالمًا بأصول الدين والنحو واللغة والطب والفلسفة والتاريخ، في غاية الذكاء شافعيًّا محدثًا" [٩] كما ذكره الدكتور نقولا زيادة ضمن الرحالة العرب ووصفه بأنه رحالة عالم ثم قال : " رحالة علم شملت

(١) الوافي بالوفيات ١٩ / ٧٣ .
(٢) ذيل مرآة الزمان ٢ / ١٨٠ .
(٣) سير أعلام النبلاء ٢٢ / ٣٢٠ .
(٤) نفسه ٢٢ / ٣٢١ ، ٣٢٢ .
(٥) طبقات الشافعية ٢ / ٧٨ .
(٦) طبقات الشافعية الكبرى ٨ / ٣١٣ .
(٧) العسجد المسبوك ، ٤٥٠ .
(٨) بغية الوعاة ٢ / ١٠٦ .
(٩) حسن المحاضرة ١ / ٥٤١ .

معرفته الطب بالإضافة إلى النحو واللغة وعلم الكلام" [١]، كما ذكره الدكتور عبد الكريم شحادة ضمن أعلام الطب العربي: وقال عنه: " وقد صحح عبد اللطيف البغدادي بعض أخطاء جالينوس ومن بعده في التشريح وخاصة في وصفهم عظم الفك الأسفل " [٢].

ومع مدح الكثيرين وثنائهم عليه إلا أنه لم يسلم من نقد وتجريح من البعض ومنهم :جمال الدين القفطي الذي قال عنه : " كان يدّعى معرفة النحو واللغة والعربية وعلم الكلام والعلوم القديمة والطب " [٣]، وقال أيضا : " وكان دميم الخلقة نحيلها، قليل لحم الوجه قصير الخلقة. ولما رآه زيد ابن الحسن الكندي لقّبه المطّجن- والألقاب تنزل من السماء- فشاعت ولم يعرف بعد ذلك إلا بها. وكان يدّعى تصانيف كتب ما فيها مبتكر، وإنما يقف على تصانيف غيره، فإما أن يختصر أو يزيد ما لا حاجة إليه، وهى فى غاية البرودة والركاكة. وكان إذا اجتمع بصاحب علم فرّ من الكلام معه فى ذلك العلم، وتكلم فى غيره مغربا، ولم يكن محققا فى شيء مما يقوله ويدّعيه.ولقد اجتمعت به واختبرته فرأيته فيما يدّعيه كالأعمى الذي يتحسس ويدّعى حدّة النظر؛ وما وثقت من روحي بذلك حتى سألت جماعة من أهل علوم متفرقة قد كان يدّعيها، فذكروا من أمره بعد نظره وكلامه نظير ما علمته منه. ومن أسوأ أوصافه قلة الغيرة- ونعوذ بالله من ذلك- " [٤] ، وقال أيضا : "

(١) الجغرافيا والرحلات عند العرب ، ط/ الشركة العالمية للكتاب دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٧م ، ، ١٨١ .

(٢) صفحات من تاريخ التراث الطبي العربي الإسلامي ، ط / منظمة الصحة العالمية أكاديميا – – بيروت ، ١٨٥ .

(٣) إنباه الرواة ٢ / ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٤) إنباه الرواة ٢/ ١٩٥ ، ١٩٦ .

وأبيعت كتبه بحلب، فوقعت على شيء منها، وهى في غاية الانحطاط عن رتبة الكمال. ونعوذ بالله من فتنة الدعوى " [١].

ومنهم أيضا ابن شاكر الكتبي حيث قال عنه : " لقبه تاج الدين الكندي بالجدي المطجن لرقة وجهه وتجعده ويبسه " ثم قال بعد أن وصفه بالذكاء وكثرة المصنفات : " إلا أن دعاويه كانت أكثر من علومه، وكان دميم الخلقة نحيلاً قليل لحم الوجه " [٢].

وقال عنه الصفدي : " وكان أحد الأذكياء المتضلعين من الآداب والطب وعلم الأوائل إلا أن دعاويه كانت أكثر من علومه وكان ذميم الخلقة نحيلها قليل لحم الوجه بالغ القفطي في الحط عليه " [٣] .

وإذا ما أردنا أن نعرف سبب قدح البعض فيه وحطهم من منزلته ، فسنجد السبب في ذلك هو كثرة ادعاءاته العلمية كما يذكر الذهبي حيث يقول: " ... لكن كثرة دعاويه أزرت به " [٤] ، ثم يوضح أيضا العلامة الذهبي موقف القفطي من عبد اللطيف البغدادي فيقول : " ولقد بالغ القفطي في الحط عليه وظلمه وبخسه حقه " [٥]، ثم يذكر خلاصة كلام القفطي فيه فيقول: " وذَكَرَهُ الجمَالُ القِفْطِيُّ فِي (تَارِيخِ النُّحَاةِ) فَمَا أَنْصَفَهُ، فَقَالَ: المُوَفَّقُ، النَّحْوِيُّ، الطَّبِيْبُ، المُلَقَّبُ بِالمَطْحن، كَانَ يَدَّعِي النَّحْوَ، وَاللُّغَةَ، وَعِلْمَ الكَلاَمِ، وَالعُلُوْمَ القَدِيْمَةَ، وَالطِّبَّ، وَدَخَلَ مِصْرَ وَادَّعَى مَا ادَّعَاهُ، فَمَشَى إِلَيْهِ الطَّلَبَةُ، فَقَصَّرَ، فَجفَوهُ، ثُمَّ نَفَقَ عَلَى وَلدَي إِسْمَاعِيْلَ بنِ أَبِي الحَجَّاجِ

(١) نفسه ٢/ ١٩٦ .
(٢) فوات الوفيات ٢ / ٣٨٥ .
(٣) الوافي بالوفيات ١٩ / ٧٤ .
(٤) العبر ٥ / ١١٥ .
(٥) نفسه.

الكَاتِبِ، فَنقلاَهُ إِلَيهِمَا، وَكَانَ دَمِيمَ الخِلْقَةِ نَحِيلَها" [١]. ثم ينصف البغدادي بقوله : " وَيظْهرُ الهَوَى مِنْ كَلاَمِ القِفْطِيِّ، حَتَّى نَسبَهُ إِلَى قِلَّةِ الغَيرَةِ " [٢].

كما يذكر ابن أبي أصيبعة أسباب أخرى لنقد البعض له فيقول : " وكان رحمه الله ربما تجاوز في الكلام لكثرة ما يرى في نفسه ، وكان يستنقص الفضلاء الذين في زمانه وكثيرا من المتقدمين ، وكان وقوعه كثيرا جدا في علماء العجم ومصنفاتهم وخصوصا الشيخ الرئيس ابن سينا ونظرائه " [٣] .

مما سبق من كلام الذهبي وابن أبي أصيبعة يتضح أن أسباب قدح البعض في الرحالة عبد اللطيف البغدادي هي :

١- كثرة ادعاءاته العلمية .

٢- تجاوزاته في الكلام عند الحديث عن سابقيه من العلماء .

٣- استنقاصه من حق الفضلاء من العلماء السابقين أو المعاصرين له .

٤- الانتقاص من بعض العلماء غير العرب والذين يشهد بفضلهم القاصي والداني مثل انتقاصه من قدر ابن سينا .

١٢- من أقواله المأثورة :" من لم يحتمل ألم التعلم لم يذق لذة العلم ، ومن لم يكدح لم يفلح " [٤] . " يَنْبَغِي أَنْ تَكُوْنَ سِيرتُكَ سِيرَةَ الصَّدْرِ الأَوَّلِ، فَاقْرَأِ السِّيرَةَ النَّبَوِيَّةَ، وَتَتَبَّعْ أَفعَالَهُ، وَاقتَفِ آثَارَهُ، وَتَشَبَّهْ بِهِ مَا أَمكنَكَ.. .إِذَا خلوتَ مِنَ التَّعَلُّمِ وَالتَّفَكُّرِ فَحرِّكْ لِسَانَكَ بِالذِّكْرِ، وَخَاصَّةً عِنْد النَّوْمِ، وَإِذَا حَدَثَ لَكَ فَرحٌ بِالدُّنْيَا فَاذْكُرِ المَوْتَ، وَسُرْعَةَ الزَّوَالِ، وَكَثْرَةَ المُنَغِّصَاتِ.إِذَا حزَبَكَ أَمرٌ فَاسْتَرْجِعْ، وَإِذَا اعترَتْكَ غَفلَةٌ

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢ / ٣٢١ .

(٢) نفسه .

(٣) عيون الأنباء ، ٦٨٣ .

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٢ / ٣٢٢ ، ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ٢ / ٧٨ .

فَاسْتَغْفِرْ.وَاعلَمْ أَنَّ لِلدِّينِ عبقَةً وَعرقاً يُنَادِي عَلَى صَاحِبِهِ، وَنوراً وَضيئاً يُشرِفُ عَلَيْهِ وَيدلُّ عَلَيْهِ، يَا مُحيِي القُلُوْبِ المَيْتَةِ بِالإِيْمَانِ خُذْ بِأَيدينَا مِنْ مَهوَاةِ الهَلَكَةِ، وَطَهِّرْنَا مِنْ دَرَنِ الدُّنْيَا بِالإِخْلاَصِ لَكَ" (١).

ومن أقواله التي أوردها ابن أبي أصيبعة : " ينبغي أن تحاسب نفسك كل ليلة إذا آويت إلى منامك وتنظر ما اكتسبت في يومك من حسنة فتشكر الله عليها وما اكتسبت من سيئة فتستغفر الله منها وتقلع عنها وترتب في نفسك مما تعمله في غدك من الحسنات وتسأل الله الإعانة على ذلك ، وقال أوصيك أن لا تأخذ العلوم من الكتب وإن وثقت من نفسك بقوة الفهم ، وعليك بالأستاذين في كل علم تطلب اكتسابه ولو كان الأستاذ ناقصا فخذ عنه ما عنده حتى تجد أكمل منه ، وعليك بتعظيمه وتوجيبه وإن قدرت أن تفيده من دنياك فافعل وإلا فبلسانك وثنائك وإذا قرأت كتابا فاحرص كل الحرص على أن تستظهره وتملك معناه وتوهم أن الكتاب قد عدم وإنك مستغن عنه لا تحزن لفقده ، وإذا كنت مكبا على دراسة كتاب وتفهمه فإياك أن تشتغل بآخر معه ولصرف الزمان الذي تريد صرفه في غيره إليه ، وإياك أن تشتغل بعلمين دفعة واحدة وواظب على العلم الواحد سنة أو سنتين أو ما شاء الله ، فإذا قضيت منه وطرك فانتقل إلى علم آخر ، ولا تظن أنك إذا حصلت علما فقد اكتفيت بل تحتاج إلى مراعاته لينمو ولا ينقص ومراعاته تكون بالذاكرة والتفكر واشتغال المبتدئ بالتلفظ والتعلم ومباحثة الأقران ، واشتغال العالم بالتعليم والتصنيف ، وإذا تصديت لتعليم علم أو للمناظرة فيه فلا تمزج به غيره من العلوم فإن كل علم مكتف بنفسه مستغن عن غيره فإن استعانتك في علم بعلم عجز عن استيفاء أقسامه كمن يستعين بلغة في لغة أخرى إذا علمها أو جهل بعضها ، قال: وينبغي للإنسان أن يقرأ التواريخ وأن يطلع على السير وتجارب الأمم فيصير بذلك كأنه في

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٢ / ٣٢٢ .

عمره القصير قد أدرك الأمم الخالية وعاصرهم وعاشرهم وعرف خيرهم وشرهم ... " (١)

١٣- وفاته: غاب عبد اللطيف البغدادي عن موطنه بغداد وقتا طويلا يقدر بنحو خمس وأربعين سنة[٢]، ثم بعد هذه الرحلات العديدة والتي زار فيها العديد من البلدان عزم على آداء مناسك الحج ، فقرر أن يعود إلى موطنه ببغداد ثم يخرج للحج ، ولكنه عندما وصل بغداد مرض بمرض يسمى علة الذرب [٣]، فمنعه هذا المرض من آداء الحج [٤]، ومكث مريضا حتى وافته المنية في الثاني عشر المحرم [٥] سنة تسع وعشرين وستمائة[٦]، ودفن بالوردية [٧] – رحمه الله رحمة واسعة واسكنه فسيح جناته –.

المبحث الأول

(١) عيون الأنباء ٦٩١ – ٦٩٣ .

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ٢ / ١٨٠ .

(٣) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ٤ / ١٥٧٢، الذَّرَبُ : داءٌ يَعرِض للمعِدَة فلا تهضم الطعام ويَفْسد فيها ولا تُمْسِكُه . ابن الأثير الجزري (أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ت ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م) : النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق : طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي ، ط/ المكتبة العلمية – بيروت ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م٢ / ٣٩٢ ، ابن منظور (محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ت ٧١١ هـ / ١٣١١ م) : لسان العرب ، ط/ دار صادر – بيروت ١ / ٣٨٥ .

(٤) السيوطي بغية الوعاة ٢ / ١٠٧ .

(٥) السبكي : طبقات الشافعية ٨ / ٣١٣ ، السيوطي بغية الوعاة ٢ / ١٠٧ .

(٦) ابن شاكر : فوات الوفيات ٢ / ٣٨٥ .

(٧) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ٢ / ١٨٠ .

تفاصيل مشاهدات عبد اللطيف البغدادي في مصر :

١ - تفاصيل ما قبل المجاعة :

بدأ عبد اللطيف البغدادي حديثه في الكتاب بمقدمة بدأها بالبسملة والحمد لله والصلاة على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثم ذكر دوافع تأليف هذا الكتاب فقال : " فإني لما أنهيت كتابي عن أخبار مصر المشتمل على ثلاثة عشر فصلا رأيت أن أفرد منه الحوادث الحاضرة والآثار البادية المشاهدة ، إذ كانت أصدق خبرا وأعجب أثرا ، وإن ما عداها قد يوجد بعضه أو كله في كتب من سلف مجتمعا أو متفرقا ، فألفيت ذلك في فصلين منه فجردتهما وجعلتهما مقالتين في هذا الكتاب ، وزدت ونقصت بحسب ما اقتضته الحال رجاء أن يخفف إنهاؤه ويلطف موقعه عند عرضه على صاحب الأمر... سيدنا ومولانا الناصر لدين الله أمير المؤمنين ... لئلا ينطوي عن العلوم الشريفة شيء من أخبار بلاده وإن تراخت ، أو يخفى بعض أحوال رعاياه وإن تنامت ، وليعلم حفدة سدته وخواص دولته والعاكفون بحظيرة قدسه ، والطائفون بحرم كعبته ، مقدار ما يدفع الله تعالى عنهم به ، فيزدادوا لله تعالى شكرا " (١) .

يوضح عبد اللطيف البغدادي في مقدمة كتابه دوافع تأليفه للكتاب ويمكن استنباطها فيما يلي:

١ – إفراد الحوادث التي عاصرها وشاهدها من تاريخ مصر في كتاب مستقل ، وأن غيرها من الأحداث موجود في كتب السابقين سواء كان مجمعا أو مفرقا .

٢ – تقديم الكتاب للخليفة العباسي الناصر لدين الله .

(١) الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، ط/ مطبعة وادي النيل ، الطبعة الأولى ١٢٨٦هـ ، ٤ .

٣- اطلاع الخليفة بأخبار البلاد الواقعة تحت سلطته والبعيدة عن رؤيته ، ويقصد بذلك مصر.

٤- حتى يُعلم خواص الخليفة ورعاياه بما هم فيه من نعم جزيلة – يقصد بهذا حفظ الله لهم من تلك المجاعة المهلكة – بفضل وجود الخليفة أمير المؤمنين بينهم .

وقد بالغ عبد اللطيف البغدادي في مدح وتمجيد الخليفة الناصر ووصفه بأوصاف لا تليق إلا بحق الرسل ومن ذلك قوله عنه " صاحب الأمر وإمام العصر إمام الأنام ومفترض الطاعة بموجب شريعة الإسلام خليفة الله في أرضه ومنتهى مقر وحيه والقيم على العالم بإمضاء أمر الله تعالى ونهيه سيدنا ومولانا الناصر لدين الله أمير المؤمنين ذي المواقف المقدسة النبوية ، الطاهرة الزكية ، المسجدة المعظمة الإمامية ، الباهرة أنوارها الزاهرة آلاؤها ، لئلا ينطوي عن العلوم الشريفة شيء من أخبار بلاده وإن تراخت ، أو يخفى بعض أحوال رعاياه وإن تنامت ، وليعلم حفدة سدته وخواص دولته والعاكفون بحظيرة قدسه ، والطائفون بحرم كعبته ، مقدار ما يدفع الله تعالى عنهم به ، فيزدادوا لله تعالى شكرا ؛ ليزيدهم بدوام دولة أمير المؤمنين عليهم فضلا وما كان الله ليعذبهم وأنت

فيهم[١]، وعلى العبد التقرب بالإنهاء ، وإن كانت العلوم النبوية إليها الانتهاء فإن الله سبحانه وتعالى تعبد أن يدعى جهرا ، وإن كان يعلم السر وأخفى ، ليظهر على الجوارح ما تكمن الضمائر ، فيكمل للمرء المسلم مراتب الإيمان الثلاث : عقيدة بالقلب ، وقول باللسان ، وعمل بالجوارح ، جعلنا الله ممن ترقى إلى هذه الدرجة في طاعته بطاعة خليفته في أرضه – صلوات الله عليه وعلى الخلفاء الراشدين قبله – " [٢] .

ثم انتقل عبد اللطيف البغدادي بعد ذلك إلى نص الكتاب والذي وصف فيه مشاهداته في رحلته إلى مصر وقسمه إلى مقالتين :

فأما المقالة الأولى فقسمها إلى ستة فصول ومحتواها كالتالي:

الفصل الأول بعنوان : (خواص مصر العامة)[٣]: وتناول فيه في البداية وصفا جغرافيا دقيقا لأرض مصر من جنوبها إلى شمالها مما يدل على تمكنه كرحالة في مجال الجغرافيا فقال: " إنَّ أرض مصر من البلاد العجيبة الآثار، الغريبة الأخبار، وهي وادٍ يكتنفه جبلان شرقيّ وغربيّ، والشرقيّ أعظمهما يبتديان من

(١) سورة الأنفال من الآية (٣٣) ، وهذه مبالغة غير مقبولة منه فهذه الآية مقصود بها النبي – صلى الله عليه وسلم – ، وأن الله يحفظ الأمة من العذاب بفضل وجود النبي – صلى الله عليه وسلم – وأنه لا يُنزل بهم العذاب وهو مقيم بين أظهرهم .الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٢ م) : جامع البيان في تأويل القرآن ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، ط/ مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م ١٣ / ٥٠٩ ، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣ م) : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، ط/ دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع – بيروت ، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م ٥ / ٣٥٢ .

(٢) الإفادة والاعتبار ، ٤ .

(٣) الإفادة والاعتبار ، ٥ – ٧ .

أسوان ويتقاربان بأسنا حتى يكادا يتماسان، ثم ينفرجان قليلا قليلا، وكلّما امتدّا طولا انفرجا عَرضاً، حتى إذا حاذيا الفسطاط كان بينهما مسافة يوم فما دونه، ثم يتباعدان أكثر من ذلك ، والنيلُ ينسابُ بينهما ويتشعَّب بأسافل الأرض وجميعُ شُعَبه تصبُّ في البحر المالح[١]. وهذا النيل له خاصتان: الأولى، بُعد مرماه، فإنّا لا نعلم في المعمورة نهراً أبعد مسافةً منه، لأنّ مباديه عيونٌ تأتي من جبل القمر ، وزعموا أن هذا الجبل وراء خط الاستواء بإحدى عشرة درجة، وعرض أسوان وهي مبدأ أرض مصر اثنتان وعشرون درجة ونصف درجة، وعرض دمياط وهي أقصى أرض مصر إحدى وثلاثون درجة وثلث درجة، فتكون مسافة النيل على خط مستقيمٍ ثلاثاً وأربعين درجة تنقص سُدسا ومساحة ذلك تقريبا تسعمائة فرسخ، هذا سِوى ما يأخذ من التعريج والتوريب فإن اعتُبر ذلك تضاعفت المساحة جداً.والخاصة الثانية : أنه يزيد عند نضوب سائر الأنهار ونشيش المياه[٢]، لأنه يبتدئ بالزيادة عند انتهاء طول النهار ، وتتناهى زيادته عند الاعتدال الخريفي، وحينئذ تُفتح التُّرع وتفيضُ

(١) يقصد بأسافل الأرض : منطقة الدلتا ، وقد استخدم عبد اللطيف البغدادي هذا التعبير للدلالة على الدلتا في أكثر من موضع من الكتاب ، ويفهم من التعبير أنه كان للنيل أكثر من فرعين في أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي على حد تعبير عبد الرحمن الشيخ . عبد اللطيف البغدادي : رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر أو كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، تقديم : د/ عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، ط/ الهيئة العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ١٩٩٨ م ، سلسلة الألف كتاب الثاني رقم (٣١٤) ص ٥٥ هامش (٢) .

(٢) نشيش المياه جفافها ، ونَشَّ الغَدِيرُ والحَوْضُ يَنِشُّ نَشّاً ونَشِيشاً يَبِسَ ماؤُهما ونَضَبَ وقيل نَشَّ الماءُ على وجه الأَرض نَشِفَ وجفَّ . ابن منظور : لسان العرب ٦ / ٣٥٢ .

على الأراضي، وعلَّة ذلك أنَّ موادَّ زيادته أمطار غزيرةٌ دائمةٌ وسيولٌ متواصلةٌ تمدُّه في هذا الأوان " [١] .

ثم تحدث عن الأمطار بمصر وأنها نادرة بالصعيد وكثيرة في الشمال لكنها لا تفي بحاجة الزراعة ، وأن أمطار الإسكندرية ودمياط غزيرة ، ثم وصف أرض مصر وكيفية زراعتها، ثم تحدث عن الرياح .ثم تحدث عن فصول السنة وأثرها على مصر فقال : " ومنها أن الفصول بها متغيِّرةٌ عن طبيعتها التي لها فإنَّ أخصَّ الأوقاتِ باليُبس في سائر البلاد، أعني الصيف والخريف تكثر فيه الرطوبة بمصر بمدِّ نيلها وفيضِه لأنّه يمد في الصيف ويطبق الأرض في الخريف. فأمّا سائر البلاد فأنّ مياهها تنشُّ في هذا الأوان، وتغزرُ في أخصِّ الأوقات بالرطوبة – أعني الشتاء والربيع – ومصر إذ ذاكَ تكونُ في غاية القحولة واليُبس ولهذه العلة تكثر عفونتها واختلافُ هوائها " [٢]، ولم ينس عبد اللطيف البغدادي مهنته كطبيب فتحدث عن الأمراض المنتشرة بمصر في فصلي الخريف والشتاء فقال : " وتغلُب على أهلها الأمراضُ العفنيّة الحادثة عن أخلاطٍ صفراويةٍ وبلغميّة، وقلّما تجدُ فيهم أمراضا صفراوية خالصة، بل الغالب عليهم البلغم حتّى في الشباب والمحرورين، وكثيرا ما يكون مع الصفرأخام، وأكثر أمراضهم في آخر الخريف وأول الشتاء لكنها يغلبُ عليها حميد العاقبة، وتقلُّ فيهم الأمراض الحادة والدموية الوحية، وأما أصحّاؤُهم فيغلبُ عليهم الترهُّل والكسل وشحوب اللون وكمودته، وقلّما ترى فيهم مشبوبَ اللونِ ظاهر الدَّم، وأما صِبيانُهم فضاوون يغلب عليهم الدَّمامةُ وقلَّة النضارة وإنّما تحدثُ لهم البدانةُ والقسامة غالبا بعد العشرين" [٣].

---

(١) الإفادة والاعتبار، ٥ .

(٢) نفسه ، ٦ .

(٣) نفسه .

ثم تحدث عن ذكاء المصريين وسببه ووصف أهل مصر من ناحية السمرة والبياض فقال : " وأما ذكاؤهم وتوقُّدُ أذهانهم وخفَّة حركاتهم، فلحرارة بلدِهم الذاتية لأنَّ رطوبته عرضية، ولهذا كان أهل الصعيد أفحل جسوماً وأجفُّ أمزجة، والغالب عليهم السمرة وكان ساكنو الفسطاط إلى دمياط أرطب أبداناً، والغالب عليهم البياض " [1].

ثم ذكر سبب اختيار قدماء المصريين لفصل الخريف ليكون بداية العام عندهم فقال : " ولمّا رأى قدماءُ المصريين أنّ عمارة أرضهم إنّما هي بنيلِها، جعلوا أوّل سنتهم أولّ الخريف وذلك عند بلوغ النيل الغاية القصوى من الزيادة " [2].

ثم تكلم عن هبوب ريح الصبا [3] وريح الجنوب[1] بمصر وأوقات هبوبهما والفوائد الطبية لريح الصبا فقال : " ومنها أن الصَّبا محجوبة عنهم بجبلها الشرقي المسمَّى المقطَّم، فإنَّه يستر عنها هذه الريح

(١) الإفادة والاعتبار ، ٦ .

(٢) نفسه، ٧ .

(٣) الصَبا: ريحٌ، تستقبل القبلة . وهي ريح معروفة تهبَّ من موضع مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار، تقول منه: صبت تصبو صبوا. وتزعم العرب أن الدبور تزعج السحاب وتشخصه في الهواء ثم تسوقه، فإذا علا كشفت عنه واستقبلته الصبا فردت بعضه على بعض حتى يصير كسفا واحدا، والجنوب تلحق روادفه به وتمده من المدد، والشمال تمزق السحاب. الخليل بن أحمد (أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري ت ١٧٠هـ / ٧٨٦ م) : كتاب العين ، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي ، ط/ دار ومكتبة الهلال ٧ / ١٦٩ الأزهري (أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري ت ٣٧٠ هـ / ٩٨١م) : تهذيب اللغة ، ط/ دار إحياء التراث العربي– بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠١م ١٢ / ١٨٠ ، الجوهري (أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي ت ٣٩٣هـ / ١٠٠٣م): الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار ، ط/دار العلم للملايين – بيروت ، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م ٦ / ٢٣٩٨ .

الفاضلة وقلّما تهبُّ عليهم خالصةً اللهمَّ إلّا نكباً، ولهذا اختار قدماء المصريين أن يجعلوا مستقر الملك منَف ونحوها مما يبعد عن هذا الجبل الشرقي إلى الغربي واختار الروم الإسكندرية وتجنَّبوا موضع الفسطاط، لقربه من المقطَّم فإنَّ الجبل يسترُ عما في لِحْفِه أكثر ممَّا يستر عما بعُدَ منه، ثم إنَّ الشمس يتأخَّر طلوعها عليهم فيقلّ في هوائهم النضجُ ويبقى زمانا على نهوة الليل، ولذلك تجد المواضعَ المنكشفة للصَّبا من أرض مصر أحسن حالاً من غيرها ، ولكثرَة رطوبتها يتسارع العفنُ إليها، ويكثرُ فيها الفأرُ ويتولَّد من الطين [٢]، والعقارب وتكثر بقوص كثيراً ما تقتل بلبسها والبقُّ المنتنُ والذبابُ والبراغيثُ تدوم زماناً طويلا.ومنها أن الجنوب إذا هبَّت عندهم في الشتاء والربيع وفيما بعد ذلك، كانت باردة جداً ويسمونها المريسي لمرورها على أرض المريس وهي من بلاد السودان[٣]، وسبب بردها، مرورها على

(١) ريح الجنوب : هي الريح التي تهب من جنوب البلاد وهي أشد الرياح حرارة ، وتسمى أيضا بالريح المريسية. المقريزي (أحمد بن علي بن عبد القادر الحسيني العبيدي ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١ م) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط/ دار الكتب العلمية– بيروت ، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ ١ / ٨٥ ، الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن عبد المنعم الحِميرِيت ٩٠٠هـ / ١٤٩٥ م) : الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس ، ط/مؤسسة ناصر للثقافة – بيروت، طبع على مطابع دار السراج الطبعة الثانية، ١٩٨٠ م، ٥٣٨ .

(٢) وموضوع توالد الفئران من الطين من مزاعم وخرافات العامة، وقد نقل البغدادي هذا الكلام على أنه مسلم به من غير نقد ولا تفنيد ، وما كان له أن يذكر هذا من غير أن يبين أنه من خرافات العامة .

(٣) المريس :هو اسم للبلاد التي تتصل من بلاد النوبة بأسوان ، وإليها تضاف الريح المريسية.

برَكٍ ونقائع، والدليل على صحّة ذلك أنّها إذا دامت أيّاما متوالية، عادت إلى حرارتها الطبيعية وأسخنت الهواء وأحدثت فيه يَبساً"[١].

أما الفصل الثاني فجعله بعنوان : "فيما تختص به من النبات "[٢] فتكلم عبد اللطيف البغدادي – بتمكن المتخصص في علم النباتات – عن أنواع النباتات التي عدّ مصر متفردة بها أو متميزة في إنتاجها، وإن كان في بعض الأحيان يثبت أقوال العامة بلا نقد أو تمحيص أو تدقيق ، بل يسوق الأدلة على صدق زعمهم ، وذلك كقوله :" وزعموا أنَّ شجر الموز في الأصل مركب من قلقاس ونوى النخل تجعل النواة في جوف القلقاسة وتغرس، وهذا القول وإن كان ساذجا من دليل يشهد له فالحس يسوغه، وذلك أنه تجد لشجرته سعفا كسعف النخل سواء، إلّا أنك ينبغي أن تتخيل الخوص اتصل بعضه ببعض، حتى صار كأنه ثوب حرير أخضر قد نشر أوراقه خضرا ترفٌّ ريا وطراءة، وكأنَّ الرطوبة اكتسبها من القلقاس والشكل اكتسبه من النخل، وأنت تعلم أن تشقق سعف النخل إلى الخوص إنما كان من قبل اليبس الغالب على مزاج النخل، ولكثرة رطوبة الموز بقي سعفه متصل الخوص ولم يتشقق، فعلى هذا يكون القلقاس له بمنزلة الماء، والنّخل بمنزلة الصورة، وأنت إذا تأمّلت خشب الموزِ وورقه بعد يبسه ألفيت به تلك الشظايا والخيوط التي تجدها في جذع النخل وسعفه، إلّا أنك تجدها مشوبة برطوبة قد ألحَمَت بينها، وملأت فُرَجَها وإن كان القلقاس لا ينفكُّ من ذلك " [٣].

وتناول في هذا الفصل أنواع عدة من النباتات التي تزرع بمصر مثل: البامية والتي وصفها وصفا دقيقا ، وذكر كيفية طبخها ، ثم ذكر الملوخية فوصفها

(١) الإفادة والاعتبار ، ٧ .

(٢) نفسه ، ٧ – ١٧ .

(٣) الإفادة والاعتبار ، ١٢ .

ووصف كيفية طبخها وأقوال العلماء فيها ، ثم تحدث عن شجر اللبخ فوصفه وصفا دقيقا ، ثم ذكر أقوال العلماء فيه ، ثم تكلم عن الجميز فوصف ثمره وكيفية جمعه ، ثم وصف شجره ، وذكر استعمالات شجره ، وأقوال العلماء فيه ، ثم ذكر البلسان ومكان وجوده بمصر وكيفية جمعه وأقوال بعض العلماء عنه ، ثم تحدث عن القلقاس ووصفه وكيفية طبخه ووصف شجره وورقه وفوائده .

كما تناول بعض النباتات والأشجار الأخرى مثل الموز ، والليمون ، والبلسم ، والتفاح ، والنخل، والذرة ، والسنط ، والخيار ، والبطيخ ، والفول وغيرها من النباتات التي تحدث عنها بالتفصيل .

والفصل الثالث : تناول فيه ما تختص به مصر من الحيوان[1] فذكر أولا الحيوانات البرية فتحدث عما يعرف الآن بمزارع الدجاج وسماها حضانة الفراريج وذكر عن هذه المزارع تفاصيل رائعة عن كيفية بناء المعامل ووصفها وصفا دقيقا ، ثم وضح بالتفصيل مراحل خروج الدجاج من البيض ، وذكر أفضل الأوقات في إنشاء تلك المزارع . ثم تحدث عن الحمير في مصر ووصفها وذكر أثمانها ، وكذلك تكلم عن البقر وأفضل أنواعها ، والخيل وثمنها ، والبغال وكيفية الحصول عليها من تكاثر الخيل والحمير .

ثم تحدث عن الحيوانات البحرية فذكر التماسيح وكثرتها بمصر خاصة في الصعيد الأعلى ووصفها وصفا دقيقا ، وتحدث عن بيضها وإنتاجها ، والفوائد الطبية المستخرجة منها ، ثم تحدث عن الدلفين ومكان وجوده ، الأسقنقور (الورل) ، وكذلك عن فريس البحر (فرس النهر) وسماه خنزير الماء ، ووصفه وصفا دقيقا لأنه شاهده ، كما تحدث عن بعض الأسماك مثل سمك الرعاد ، وسمك السرب ، والترسة التي شاهدها بالإسكندرية .

---

(١) نفسه ، ١٧ – ٢٣ .

والفصل الرابع في اختصاص ما شوهد من آثارها القديمة[1] فتحدث في بدايته عن الأهرام ووصفها وصفا دقيقا ، لكنه ذكر أن بناء سور القاهرة وقناطر الجيزة كان بأحجار الأهرام الصغيرة – وهذا ما سأتناوله بالتفصيل في نهاية هذا القسم – .

ثم تحدث عن الملك العزيز بن يوسف ومحاولته هدم الهرم الأصغر .

ثم تحدث عن المغارات الموجودة بمصر بجوار الأهرام ووصفها وصفا دقيقا ، ثم تحدث عن أبو الهول وتعجب من تناسب أعضاء وجهه ، ثم ذكر الآثار والتماثيل الموجودة بعين شمس ووصفها وصفا دقيقا ، ثم تعجب من مهارة نحتها وذكر المسلات بعين شمس ، ثم انتقل للحديث عن المسلات بالإسكندرية ، وعمود السواري ، ومشاهدته لنحو أربعمائة عمود مكسورة ، ثم ذكر خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص بإذن عمر رضي الله عنه– وهذا الكلام عار من الحقيقة كما سأوضح .

ثم ذكر منارة الإسكندرية ووصفها ، وانتقل بعد ذلك للحديث عن مدينة منف بالجيزة فوصفها ووصف بعض التماثيل الموجودة بها وصفا دقيقا ، وتكلم عن محاولات الحكام للحفاظ على الآثار ومنع تخريبها أو سرقة محتوياتها ، وتناول بالحديث الآلات والأشياء التي توجد في مقابر الفراعنة بجوار جثث الموتى كالجواهر والحلى والمشغولات الذهبية والآلات التي كانوا يستعملونها ، ثم تحدث عن الحيوانات الموجودة في مدافن الفراعنة .

ثم ذكر أن الأهرام لا يوجد لها ذكر في التوراة ولا في غيرها من الكتب – وهذا كلام صحيح – ، وفيه رد على ادعاء اليهود أنهم بناة الأهرام أو أنهم شاركوا في بناءها .

---

(١) الإفادة والاعتبار ، ٢٣ – ٣٨ .

أما الفصل الخامس فعنوانه (ما شوهد بها من غرائب الأبنية والسفن)[١] تحدث فيه الأبنية في مصر وما في بنائها من هندسة بارعة ووصفها وصفا دقيقا ، ووصف شوارعها وما تتميز به من اتساع ، ثم تحدث عن مواد البناء من حجارة وطوب أحمر ، وغيرها ، ثم وصف الحمامات واتقان بنائها وتناولها بالوصف الدقيق ، ثم وصف السفن وأصنافها وأشكالها .

أما الفصل السادس فجاء بعنوان (في غرائب أطعمتها)[٢]وحديثه عن الأطعمة التي يتناولها المصريون يعد تسجيلا دقيقا لما كان عليه حال المطبخ المصري آنذاك؛ فتناول بالتفصيل أنواع الأطعمة والحلويات والمشروبات في مصر مثل : النيدة ، ودهن بذر الفجل ، والدجاج ، والحلويات المصنوعة من السكر مثل الوردية والزنجبيلية وأقراص الليمون ، واستعمال الفستق في الطعام وفوائده الطبية ، وهريسة الفستق وكيفية صناعتها ، ثم تحدث عن طعام الملوك وأرباب الترف مثل : رغيف الصينية الذي وصف صنعه وصفا دقيقا ، ثم تحدث عن طعام العوام والفقراء وشرابهم ، ثم ذكر غرائب في مأكولات المصريين كأكل الفئران والثعابين وميتة الحمير والدواب ، ثم ذكر اتخاذ المصريين للنبيذ من البطيخ ، وعن أكل السمك بدمياط وطبخه مثلما يطبخ اللحم .

ونظرا لكثرة ما يصنع في مصر من الحلويات المتخذة من السكر وهي الشائعة ، فقد اكتفى عبد اللطيف البغدادي بالإشارة إلى استخدامها في التداوي من الأمراض ولم يذكرها بالتفصيل نظرا لكثرة أصنافها وأنها تحتاج إلى كتاب خاص على حد تعبيره فقال : " أما الحلويات المتخذة من السكر، فأصناف كثيرة، يؤدي استقصاؤها إلى الخروج عن الغرض ويحوج إلى وضع كتاب مُفرد، وقد يُتخذ منها

(١) الإفادة والاعتبار ، ٣٨ – ٤١ .

(٢) نفسه ، ٤١ – ٤٣ .

ما يصلح لمداواة الأمراض ولأرباب الحمية من المرضى والناقهين إذا تاقت أنفسهم إلى الحلوى " [1] .

هذا ملخص ما ورد في القسم الأول (المقالة الأولى) من الكتاب.

أما القسم الثاني (المقالة الثانية) فقسمه إلى ثلاثة فصول :

فأما الفصل الأول فجاء بعنوان : (في النيل وكيفية زيادته ونقصانه وقوانين ذلك) وذلك لما للنيل من أهمية للمصريين ، فقد اتضح للرحالة عبد اللطيف للبغدادي أن النيل محور حياة المصريين ومناط معيشهم ؛ لذا اهتم بالحديث عن هذا النهر ومجراه ومواسم فيضانه ومنابعه.فتكلم في البداية عن مقدار الزيادة والنقصان في النيل فقال :

" ونهاية ما تدعو إليه الحاجة من الزيادة ثماني عشرة ذراعا فإن زاد على ذلك، فإنه يروي أمكنة مستعلية وكأنه نافلة، وعلى جهة التبرع ونهاية ما يزيد على جهة الندرة أصابع من عشرين ذراعا وعند ذلك تَستبحر أمكنة يدوم مكثُ الماء عليها، فتفوت زراعتها ويبور من البلاد مما عادته أن يُزرع نحو مما روى مما عاداته أن يشرق، ولنسم الثماني عشرة نهاية الضروري ولنسم العشرين نهاية الإفراط وكل نهاية بين هاتين فلهما ابتداء يقابلها، فابتداء الضروري ست عشرة ذراعا ويسمى ماء السرطان، إذ عنده يستحق الخَراج ويدوي به نحو نصف البلاد ويغل من القوت بمقدار ما يحان أهل البلاد سننهم جمعا مع توسع ويروي سائر البلاد المعتادة بالري بما زاد على ست عشرة ذراعا إلى ثماني عشرة، وهذا يقل بمقدار ما يمير أهل البلاد سنتين فصاعدا، وأما ما نقص عن ست عشرة ذراعا

(١) الإفادة والاعتبار ، ٤٢ .

فيروي به ما هو دون الكفاية ولا تحصل منه ميرة سنتهم، ويكون تعذّر القوت بمقدار نقصانه عن ست عشرة ذراعا" (١).

ثم ذكر معنى شرقت البلاد ، وكذلك معنى كلمة النيل ، ثم ذكر مقدار مياه النيل في سنة ست وتسعين وخمسمائة : " واتفق أن زيادة النيل بلغت سنة ست وتسعين وخمسمائة اثنتي عشرة ذراعا وإحدى وعشرين إصبعا، وهذا المقدار نادر جدا، فأنه لم يبلغنا منذ الهجرة إلى الآن، أنّ النيل وقف على هذا الحد قطّ إلّا في سنة ست وخمسين وثلثمائة، فإنّه وقف على دون هذا المقدار بأربع أصابع، وأما وقوفه على ثلاث عشرة ذراعاً وأصابع، فإنه وقع نحو ست مرات في هذه المدة الطويلة، وأما أربع عشرة ذراعا وأصابع، فأنه وقع نحو عشرين مرة، وأما خمس عشرة ذراعا فأكثر من ذلك كثيرا" (٢) .

ثم ذكر أحوال زيادة النيل في تلك السنة بالتفصيل فقال : " أن العادة جارية أن تبتدئ الزيادة من أبيب وتعظم في مسرى وتتناهى في توت أو بابه ثمّ تنحطّ، فدخل أبيب في هذه السنة وابتدأ النيل يتحرك بالزيادة وكان قبل ذلك بنحو شهرين قد بدت في مائه خضرة سلقية، ثم كثرت وظهرت في رائحته ذفرة كريهة وعفونة طحلبية كأنه عصارة السِّلق إذا بقي أياما حتى يعفن" . ثم قام بعمل تجربه على المال فقال : " وجعلت منه وعاء ضيِّق الرأس فعلاه سحابةٌ خضراء فرفعتها برفق وتركتها تجف إذا بها طحلب لا شك فيه، ويبقى الماء بعد رفع هذه السحابة غير صاف لا خضرة فيه إلّا أن طعمه وريحه باقيان، وتجد فيه أيضا أجساما صغارا نباتية مبثوثة كالهباء ولا ترسب وصار أرباب الحِمية يتجنبون شربه وإنما يشربون ماء الآبار، وأغليته بالنار ظنّا مني أنه يصلُح بذلك كما وصّى الأطباء أن يُفعل

(١) الإفادة والاعتبار ، ٤٤ .

(٢) نفسه .

بالمياه المتغيّرة فزاد طمعه وريحه كراهة وسهكا فوجِدت عليه، ذلك أنّ الأجزاء النباتية التي هي مبثوثة فيه يلطّف الطبخ جوهرها فيختلط بالماء اختلاطا أشدّ عن الأول فيظهر التغير في ريحه وطعمه أكثر، ويصير ذلك بمنزلة الماء إذا طُبخ فيه سِلق أو فجل أو نحوه، فإن النار تمزج بين الماء ولطيف النبات، وأما الماء الذي يصلح بالطبخ وإياهُ قصد الأطباء، فهو الذي تغيره بمخالطته أجزاء أرضية، فإنها تنفصل عنه بالطبخ لأن الماء حينئذ يلطف فترسب فيه"

ثم يواصل حديثه عن ماء النيل فيقول : " ثم أنه دامت خضرته أياما من رجب وشعبان ورمضان، واضمحلّت في شوال، وكان يصحب الخضرة دودٌ وحيوانات، وهذا التغير في الماء يكون بالصعيد أكثر لأنه أقرب إلى المبدأ والمعدن، وانتهت زيادته في الحادي عشر من توت إلى اثنتي عشرة ذراعا وإحدى وعشرين إصبعا ثم أنحط، وورد في شوال رسول ملك الحبشة ومعه كتاب يتضمّن موت مَطرانهم ويلتمس عوضه، وذكر فيه أنّ مطرهم في هذه السنة ضعيفٌ وأن النيل قليل المد لذلك " . ثم تحدث عن تكهن بعض المصريين بمقدار زيادة النيل ومن ذلك قوله فقال : " فإن أقباط الصعيد يزعُمون أنهم يتكهنون على مقدار الزيادة في السنة من طين معلوم الوزن ينجّمونه في ليلة معروفة ويزنونه غدوة فيجدونه قد زاد فيحكمون من مقدار زيادته على مقدار زيادة النيل، وقوم يتكهنون من حمل النحل، وقوم من تعسيل النحل.فرأيت في الغالب من حال القاع إذا كان أقلّ مِن المعتاد كانت الزيادة في تلك السنة أقل من المعتاد هذا حكمه الأكثري، فإن أتت الخضرة في أول زيادته وقبيلها، قوِيَ الظنُّ بضعف جريته، فإن طالت أيام الخضرة وضعف مقدار الزيادة قوي الظن جدا بقلّته، فإن دامت الخضرة في أبيب أذِن بقلّة المدِّ وعلّةُ هذا ظاهرة، أمّا كون قلة القاع دليلا على قلة الزيادة، فلأنّ المطر الذي هو على الزيادة ينبغي أن يكون فيه من الكثرة ما يرد القاع إلى الحالة المعتادة يزيد عليها الزيادة المعتادة

وهذه كثرة لا تفي بها أمطار كل سنة ولا توجد كل وقت، مثاله أنّ القاع إذا كان ذراعا مثلا فينبغي أن تكون الزيادة إلى عشرأذرع وكون هذا أيسر من الأول، وأيضا، فأن جرية النيل الأصلية مادّتها عيون، وأما زيادته فمادتها أمطار، ونقصان العيون دليل على احتراق السنة ويبس الهواء وقلة البخار فيقل المطر لذلك، وأيضا فإنّ المدّ الزائد على القاع أكثره في الغالب ثلاث عشرة ذراعا فإذا، كأن القاع ذراعا أو ذراعين ثم زاد عليه أكثر المد وهو ثلاث عشرة ذراعا، لم يلحق ماء السرطان.وأما كون الخضرة دليلا على قلة الزيادة، فلأن النيل الماضي يغادر نقائع وغدرانا بعضها ينضب وبعضها يطحلب ويعطن ويأسن، فإذا مرت بها أمطار ضعيفة اختلطت بها وصبّتها إلى النيل، ولم يكن فيها من الكثرة ما يغلب على النقائع فيصلحها، بل النقائع تغلب على الأمطار المتّصلة بها فتحيلها إلى الفساد وينحط منها مقدار بعد مقدار ويتواصل إلينا، وكلما كانت الأمطار أضعف وأقل، كانت أيام جري الخضرة أطول فإذا كانت أمطار قوية، غسلت تلك المستنقعات وغلبت عليها وحورتها بسرعة، ...الخ " [1].

هذا ما ذكره في أمر النيل ثم ابتدأ الحديث عن المجاعة في الفصلين الثاني والثالث – وهذا ما سأتناوله بالتفصيل في الفصل التالي – لكن لنا مع ما ذكره عبد اللطيف البغدادي وقفة في مسألة هدم الأهرام الصغيرة في زمن صلاح الدين :

حيث يقول : " قد كان منها – أي الأهرام – بالجيزة عدد كثير لكنها صغار فهدمت في زمن صلاح الدين، يوسف بن أيوب، على يدي قراقوش وكان خصيّا روميا سامي الهمة فكان يتولّى عمائر مصر، وهو الذي بنى السور من الحجارة

(١) الإفادة والاعتبار ، ٤٥ – ٤٨ .

محيطا بالفسطاط والقاهرة وما بينهما وبالقلعة التي على المقطّم ... وأخذ حجارة هذه الأهرام الصغار وبنى بها القناطر الموجودة اليوم بالجيزة " [1].

وللرد على هذا الموضوع نقول :

أولا : أن عبد اللطيف البغدادي ليس شاهد عيان لتلك الحادثة حتى نسلم بكلامه هذا .

ثانيا: عدم وجود سند حقيقي يذكر بأن سور القاهرة أو قناطر الجيزة بالفعل بنيت من أحجار الأهرامات.

ثالثا : ليس هناك أدلة عقلية أو مادية ملموسة تدعم تلك الرواية .

رابعا : أن حجارة الأهرامات مدون عليها نقوش قديمة ، ولا نرى تلك النقوش على الأحجار المبني بها السور أو القناطر .

خامسا : صعوبة نقل أحجار الأهرام من الجيزة إلى القلعة نظرا لضخامتها وثقلها .

سادسا: لماذا يلجأ صلاح الدين وقراقوش لنقل الحجارة من الجيزة مع أنه يمكن أن يحصل على الحجارة من المناطق القريبة من القلعة مثل المطرية والمقطم.

سابعا : لو سلمنا بصدق الرواية فلماذا يلجأ لهدم الأهرام الصغيرة ؟ مع أن هناك الكثير من الأحجار المتساقطة في منطقة الأهرام والتي يمكن جمعها واستغلالها في بناء السور .

ثامنا : أن هدم الأهرام يحتاج لعناء شديد وتكلفة باهظة كما ذكر ذلك عبد اللطيف البغدادي نفسه.

تاسعا : التناقض الواضح في كلام البغدادي فنجده يذكر أن بناء السور والقناطر من هدم الأهرام الصغيرة نجده يذكر بعد ذلك وفي نفس الفصل فشل الملك العزيز

(١) الإفادة والاعتبار ، ٢٣ .

عثمان بن يوسف في هدم الهرم الأصغر وكل ما قام به ورجاله هو هدم بعض الحجارة القليلة في فترة تتجاوز الثمانية أشهر وفي هذا يقول : " وكان الملك العزيز عثمان بن يوسف لما استقل بعد أبيه، سوّل له جهلة أصحابه أن يهدم هذه الأهرام فبدأ بالصغير الأحمر وهو ثالثة الأثافي.فأخرج إليه الحلبية والنقابين والحجارين وجماعة من عظماء دولته وأمراء مملكته وأمرهم بهدمه ووكّلهم بخرابه فخيّموا عندها وحشروا عليها الرجال والصنَّاع ووفروا عليهم النفقات، وأقاموا نحو ثمانية أشهر بخيلهم ورجلهم يهدمون كل يوم بعد بذل الجهد واستفراغ الوسع الحجر والحجرين، فقوم من فوق يدفعونه بالأسافين والأمخال، وقوم من أسفل يجذبونه بالقلوس والأشطان، فإذا سقط سُمعله جلبة عظيمة من مسافة بعيدة حتى ترتجف له الجبال وتزلزل الأرض ويغوص في الرمل فيتعبون تعبا آخر حتى يخرجوه ثم يضربون فيه الأسافين، بعد ما ينقبون لها موضعا ويبيتونها فيه، فيتقطع قطعا فتسحب كل قطعة على العجل حتى تُلقى في ذيل الجبل وهي مسافة قريبة، فلما طال ثواؤهم ونفذت نفقاتهم وتضاعف نصبهم ووهنت عظامهم وخارت قواهم، كفّوا محسورين مذمومين لم ينالوا بغية ولا بلغوا غاية " [١].

أما مسألة أن عمرو بن العاص هو من أحرق مكتبة الإسكندرية ؛ فهذا أيضا من ادعاءات وافتراءات عبد اللطيف البغدادي ، والتي لا دليل عليها ، وقد أورد هذه الفرية أيضا بعض المؤرخين المسلمين مثل جمال الدين القفطي [٢]، والمقريزي [٣]، وقد رد غير واحد من الباحثين على هذه الفرية، ويكفينا في الرد

(١) الإفادة والاعتبار ، ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تحقيق : إبراهيم شمس الدين ، ط/ دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥ م ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

(٣) المواعظ والاعتبار ١ / ٢٩٧ .

على ذلك الادعاء أن أورد رأي ثلاثة من كتاب الغرب ومثلما يقال (الحق ما شهدت به الأعداء) وهؤلاء الثلاثة هم (جوستاف لوبون ، وعزيز سوريال عطية، ألفريد بتلر) :

١- فأما جوستاف لوبون الذي يرد على هذه الفرية بقوله : " وأما إحراق مكتبة الإسكندرية المزعوم فمن الأعمال الهمجية التي تأبها عادات العرب، والتي تجعل المرء يسأل: كيف جازت هذه القصة على بعض العلماء الأعلام زمناً طويلاً؟ وهذه القصة دحضت في زماننا فلا نرى أن نعود إلى البحث فيها، ولا شيء أسهل من أن تثبت، بما لدينا من الأدلة الواضحة، أن النصارى هم الذين أحرقوا كتب المشركين في الإسكندرية قبل الفتح العربي بعناية كالتي هدموا بها التماثيل، ولم يبق منها ما يحرق" [(١)].

٢- وقال أيضا عزيز سوريال‌عطية : " ويرتبط فتح الإسكندرية بلغط أجوف حول حرق مكتبة المدينة على يد عمرو بن العاص ، تنفيذا لأمر الخليفة عمر بن الخطاب ، لكن هذه الرواية من نسيج الخيال، وهي أقربُ إلى الأساطير في كلِّ تفاصيلها؛ وهي من حكايات الرحالة الفارسي عبد اللطيف البغدادي (ت ١٢٣١م) ومن كتابات الأسقف السوري اليعقوبي بن العبري ..." ثم سرد بعض المزاعم وعلق قائلا : " وواقع الأمر أنه لا يوجد مصادِر مُعاصِرة أو حوليَّة تُشير إلى هذا أو بشيء منه من قريب أو بعيد، كما أنه من المشكوك فيه أصلا ، أن تكون الإسكندرية عند وصول العرب إليها سنة ٦٤٢م كانت لا تزال تحوي شيئًا من مكتبة البطالمة؛ فلقد تمَّ إحراق المكتبة منذ زمن بعيد على يد يوليوس قيصَر عند هجومه على الإسكندرية؛ لمساعدة كليوباترا السابعة ضدَّ

(١) حضارة العرب ، ترجمة: عادل زعيتر، ط/ مؤسسة هنداوي للنشر والثقافة- القاهرة ، ٢٠١٢ م ، ٢٠ .

أخيها سنة ٤٨ ق.م، يضاف إلى ذلك أنه في القرن الرابع للميلاد صارت للمسيحيين الغلبة في مدينة الإسكندرية على بقايا الوثنية ، هجم المسيحيون على كل ما هو من بقايا الوثنية ودمروه تماما ، ومن ذلك بطبيعة الحال ما كان قد تبقى من مكتبة البطالمة الوثنية ، كما أن لفائف البردي واللفافات الأخرى التي قد تكون أفلتت من حرائق قيصر ومسيحيي القرن الرابع ، لابد وأنها كانت قد تهالكت وبليَت بفعل الزمن وقت وصول العرب إلى مدينة الإسكندرية سنة ٦٤٢ م " [١].

٣- أما ألفريد بتلر فقد عقد فصلا كاملا – وهو الفصل الخامس والعشرون – للرد على الادعاء والمزاعم بأن عمرو بن العاص هو من أحرق المكتبة ، رد فيه وفند كل الادعاءات التي وردت في ذلك [٢] .

٢ - تفاصيل المجاعة كما صورها عبد اللطيف البغدادي:

من أغرب الأمور التي رواها الرحالة عبد اللطيف البغدادي في كتابه عن مصر، أن المصريين عندما ألمت بهم المجاعةفي عامي ٥٩٧ ، ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ ، ١٢٠٢ م بسبب نقص مياه النيل، قد تحول بعض منهم إلي آكلي لحوم بشر، فقدم لنا صوراً بشعة لهذه المرحلة، فتحدث أولا عن ارتفاع الأسعار والقحط والجوع وارتفاع نسب الفقر وانتشار الأمراض وارتفاع نسب الوفيات فقال :

" ودخلت سنة سبع مفترسة أسباب الحياة، وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الأسعار وأقحطت البلاد ، وأشعر أهلها البلاء ، وهرجوا من خوف الجوع

(١) تاريخ المسيحية الشرقية ، ترجمة: إسحاق عبيد ، ط/ المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م، المشروع القومي للترجمة العدد (٨٩٢) ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٢) فتح العرب لمصر ، تعريب : محمد فريد أبو حديد بك ، ط/ مكتبة مدبولي- القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦ م ، ٤١٨ – ٤٤٢ .

وانضوى أهل السواد والريف إلى أمهات البلاد ، وانجلى كثير منهم إلى الشام والمغرب والحجاز واليمن ، وتفرقوا في البلاد ومُزِّقوا كل مُمزَّق، ودخل إلى القاهرة ومصر منهم خلق عظيم، واشتدَّ بهم الجوع ووقع فيهم الموت، وعند نزول الشمس الحمل وبئَ الهواء ووقع المرض والموتان " [١] .

ثم تحدث عن اشتداد الفقر حتى لجأ الناس إلى أكل الميتة والجيف والكلاب والأمر الأشد فظاعة من ذلك أنهم لجأوا لأكل لحوم الآدميين فقال : " واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات والجِيَف والكلاب والبعر والأرواث[٢]، ثم تعدوا ذلك إلى أن أكلوا صغار بني آدم فكثيرا ما يُعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون[٣]، فيأمر صاحب الشرطة بإحراق الفاعل لذلك والآكل.

ثم ذكر مشاهداته لهذه الفظائع فقال : " ورأيت صغيراً مشويا في قفة، وقد أُحضر إلى دار الوالي ومعه رجل وامرأة يزعُم الناس أنهما أبواه فأمر بإحراقهما.ووجد في رمضان وبمصر رجل وقد جُرِّدت عظامه عن اللحم، فأُكل وبقي قفصا كما يفعل الطباخون بالغنم" [٤].

ولم ينس عبد اللطيف البغدادي مهنته كطبيب حتى في مثل هذه المواقف المأساوية فحينما تكلم عن الرجل الذي جردت عظامه قال : " ومثل هذا أعوز

(١) الإفادة والاعتبار ، ٤٩ .

(٢) وهذه مبالغات غير مقبولة من عبد اللطيف البغدادي فكيف تقبل النفس السوية أكل الميتة أو الجيف أو الكلاب أو البعر أو الأرواث حتى ولو تعرض الإنسان للهلاك .

(٣) كلام البغدادي هذا مرسل بلا دليل يؤكده .

(٤) نفسه ، ٤٩ .

جالينوس مشاهدته ولذلك تطلبه بكل حيلة، وكذلك كلّ من آثر الإطلاع على علم التشريح " [١] .

ثم واصل حديثه عن المشاهد البشعة في تلك المجاعة فقال : "وحينما نشم[٢] الفقراء في آكل بني آدم كان الناس يتناقلون أخبارهم ويفيضون في ذلك استفظاعا لأمره وتعجّبا من ندوره، ثم اشتد قربهم إليه واعتيادهم عليه بحيث اتّخذوه معيشةً ومطيّة ومدَّخرا وتفنَّنوا فيه، وفشا عنهم ووُجِد بكلِّ مكان من ديار مصر، فسقط حينئذ التعجب والاستبشاع واستهجن الكلام فيه والسماع له . ولقد رأيت امرأةً يسحبها الرّعاعُ [٣] في السوق وقد ظفر معها بصغير مشويٍّ تأكل منه، وأهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شئونهم وليس فيهم من يعجب لذلك أو ينكره، فعاد تعجبي منهم أشد وما ذلك إلّا لكثرة تكرُّرِه على إحساسهم حتى صار في حكم المألوف الذي لا يستحقُّ أن يُتعجب منه.

ورأيتُ قبل ذلك بيومين صبيا نحو الرهاق [٤] مشوياً وقد أخذ به شابان أقرَّا بقتله وشيِّه وأكلِ بعضه. وفي بعض الليالي بعد صلاة المغرب كان مع جارية فطيمٌ

---

(١) نفسه .

(٢) نشم : أي ابتدأ . الزمخشري (محمود بن عمر الزمخشري ت ٥٣٨ هـ / ١١٤٤ م) : الفائق في غريب الحديث ، تحقيق : علي محمد البجاوي –محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط / دار المعرفة – لبنان ، الطبعة الثانية ٣ / ٤٣٠ .

(٣) الرَّعَاعُ: بالفتح السّفلةُ من الناس، الواحد "رَعَاعَةٌ" ويقال هم أخلاط الناس. الفيومي (أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري ت ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م) : المصباح المنير، تحقيق :يوسف الشيخ محمد ، ط/ المكتبة العصرية– بيروت، ١٢١ .

(٤) الرهاق : من راهق الغلام إذا قارب الحلم. إبراهيم مصطفى ، أحمد الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد النجار : المعجم الوسيط ، ، تحقيق / مجمع اللغة العربية ، ط/دار الدعوة ١ / ٣٧٨ .

تلاعبه لبعض المياسير فبينما هو إلى جانبها، اهتبلت غفلتها عنه صعلوكةٌ فبقرت بطنه، وجعلت تأكل منه نيّا، وحكى لي عدة نساء أنه يُتوثَّب عليهنَّ لاقتناص أولادهن ويحامين عنهم بجهدهن.

ورأيت مع امرأةٍ فطيماً لحيماً [١] فاستحسنتُه وأوصيتها بحفظه، فحكت لي أنها بينا تمشي على الخليج أنقضَّ عليها رجلٌ جافٍ ينازعها ولدها، فترامت على الولد نحو الأرض حتى أدركها فارسٌ وطرده عنها، وزعمت أنه كان يهمُّ بكلِّ عضوٍ يظهر منه أن يأكله وأنَّ الولد بقيَ مدةً مريضا لشدة تجاذبه بين المرأة والمفترس، وتجدُ أطفال الفقراء وصبيانهم ممَّن لم يبقَ له كفيل ولا حارسٌ منبثِّين [٢] في جميع أقطار البلاد وأزقَّةِ الدروب كالجراد المنتشر، ورجالُ الفقراء ونساؤهم يتصيَّدون هؤلاء الصغار ويتغذون بهم ، وإنّما يعثر عليهم في الندرة وإذا لم يحسنوا التحفظ" [٣] .

ولاحظ عبد اللطيف البغدادي أن أكثر المتهمين بأكل لحوم الأطفال الصغار كن من النساءفقال : " وأكثر ما كان يطلع من ذلك مع النساء وما أظن العلَّة فيه إلّا أنَّ النساء أقلّ حيلة من الرجال وأضف [٤]عن التباعد والاستتار، ولقد أُحرق بمصر خاصة في أيام يسيرة ثلاثون امرأةً كلّ منهنّ تُقرُّ أنها أكلت جماعة، فرأيت امرأةً قد أُحضرت إلى الوالي وفي عنقها طفل شوي، فضربت أكثر من مائتي سوط على أن تقر فلا تُحيرُ جوابا، بل تجدها قد انخلعت عن الطباع البشرية ثم سحبت

(١) لحيم : أي سمين كثير اللحم .

(٢) منبثين : أي منتشرين .

(٣) الإفادة والاعتبار ، ٤٩ ، ٥٠ .

(٤) هكذا وردت في النسخ المطبوعة ولعلها وأضعف . ينظر : الإفادة والاعتبار ، ٥٠ ، والنسخة الثانية المطبوعة من الكتاب تحت اسم : رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر ، ١٣٤ .

فماتت.وإذا أحرق آكل أصبح وقد صار مأكولا لأنه يعود شواء ويستغني عن طبخه،ثم فشا فيهم أكل بعضهم بعضا حتى فني أكثرهم، ودخل في ذلك جماعة من المياسير والمساتير منهم من يفعله حاجة ، ومنهم من يفعله استطابه" [1] .

ثم ذكر ما سمعه من بعض الناس عن هذه المآسي والجرائم فقال :" وحكى لنا رجل أنه كان له صديق أدقع[2] في هذه النازلة فدعاه صديقه هذا إلى منزله ليأكل عنده على ما جرت به عادتهما قبل، فلما دخل منزله وجد عنده جماعة عليهم رثاثة الفقر، وبين أيديهم طبيخٌ كبير اللحم وليس معه خبز، فرابه ذلك وطلب المرحاض فصادف عنده خزانة مشحونة برمم الآدمي وباللّحم الطري فارتاع وخرج فارّاً.وظهر من هؤلاء الخُبثاء من يصيد الناس بأصناف الحبائل ويجتلبونهم إلى مكانهم بأنواع المخاتل، وقد جرى ذلك لثلاثة من الأطبّاء ممّن ينتابني، أما أحدهم فإنّ أباهُ خرج فلم يرجع، وأما الآخر فإنّ امرأةً أعطته درهمين على أن يصحبها إلى مريضِها، فلما توغّلت به مضايقَ الطرق استرابَ وامتنعَ عنها وشنّع عليها فتركت درهميها، وأما الثالث فإنّ رجلاً استصحبه إلى مريضه في الشارع بزعمه، وجعل في أثناء الطريق يصدف بالكسر ويقول اليوم يُغتنم الثوابُ ويتضاعفُ الأجرُ ولمثل هذا فليعمل العاملون، ثم كثر حتّى ارتاب منه الطبيب ومع ذلك فحسن الظن بقلبه وقوة الطمع تجذبه، حتى أدخله داراً خرِبة فزاد استشعاره وتوقّف في الدرج وسبق الرجل فاستفتح، فخرج إليه رفيقه يقول له: هل مع إبطائك حصل صيد ينفع ؟ فخرج الطبيب لما سمع ذلك، وألقى نفسه إلى إصطبل من طاقة صادفها السعادة ، فقام

(١) الإفادة والاعتبار ٥٠ .

(٢) ادقع : أي افتقر . ابن القطاع الصقلي (أبو القاسم علي بن جعفر السعدي ت ٥١٥ هـ / ١١٢١ م) : كتاب الأفعال ، ط/ عالم الكتب – بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٣م ١ / ٣٤٣ .

إليه صاحب الإصطبل يسأله عن قضيته فأخفاها عنه خوفا منه أيضا، فقال: قد علمت حالك فإنّ أهل هذا المنزل يذبحون الناس بالحيل.

ووجد بأطفيح عند عطار، عدة خوابي مملوءة بلحم الآدميّ وعليه الماء والملح فسألوه عن علة اتخاذه والاستكثار منه، فقال: خِفت إذا دام الجدب أن يهزل الناس وكان جماعاتٌ من الفقراء قد آووا إلى الجيزة وتستّروا ببيوت طين، يتصيّدون فيها الناس وفطن لهم وطلب قتلهم فهربوا، ووَجد في بيوتهم من عظام بني آدم شيء كثير، وخبرني الثقة الذي وجد في بيوتهم أربعمائة جمجمة.

ومما شاع وسُمع من لفظ الوالي أن امرأة أتته سافرةً مذعورةً تذكر أنها قابِلة، وأنّ قوماً استدعوها وقدّموا لها صحنا فيه سكباج [1]مُحكم الصّنعة مكمَّل التوابل فألْفَته كثير اللحم، مبايناً اللّحمَ المعهود، فتقززت منه ثم وجدت خلوة ببنت صغيرة فسألتها عن اللحم، فقالت أنها فلانةً السمينة دخلت لتزورنا فذبحها أبي وها هي معلقة إرباً، فقامت القابلة إلى الخزانة فوجدتها أنابير لحمٍ فلمّا قصّت على الوالي القصة أرسل معها من هجَم الدار وأخذ من فيها وهرب صاحب المنزل ثم صانع عن نفسه في خُفية بثلاثمائة دينار ليحقن بذلك دمه. ومن غريب ما حدث من ذلك، أن امرأةً ذات مالٍ ويسار كانت حاملا وزوجها غائب في الخدمة وكان يجاورها صعاليك، فشَّمت عندهم رائحة طبخ فطلبت منه كما هي عادة الحبالى فالفته لذيذا فاستزادتهم، فزعموا أنه نفذ فسألتهم عن كيفية عمله فأسروا إليها أنه لحم بني آدم فواطأتهم على أن يتصيَّدوا لها الصغار وتُجزلُ لهم العطاء فلما تكرَّر ذلك منها فضرِيَت وغلَبت عليها الطِّباع السبعية، وشى بها جواريها خوفاً

(١) سكباج : مكون من مقطعين : سك بمعنى خل ، باج بمعنى لون أي لون الخل . ابن منظور : لسان العرب ٦ / ٣٩ .

منها،فهجم عليها فوجد عندها من اللّحم والعظام ما يشهد بصحة ذلك فحُبست مقيَّدة وأرجئ قتلها احتراما لزوجها وإبقاءً على الولد في جوفها " [١].

ثم ذكر بأن ما أورده في الكتاب هو قليل جدا بالنسبة لما رآه أو سمعه ، وأنه اقتصر على بعضه حتى لا يتهم أو لا يعد هازئا فقال : " ولو أخذنا نقصُّ كل ما نرى ونسمع لوقعنا في التهمة أو في الهذر، وجميع ما حكيناه مما شاهدناه لم نتقصَّده ولا تتبعنا مظانَّه وإنّما هو شيء صادفناه اتّفاقا بل كثيرا ما كنت أفرُّ من رؤيته لبشاعة منظره. وأما من يتحين ذلك بدار الوالي فإنه يجد منه أصنافا تحضر مع آناء الليل والنهار، وقد يوجد في قدرٍ واحدة اثنان وثلاثة وأكثر، ووجد بعض الأيام قِدر فيها عشر أيد كما تُطبخ أكارعُ الغنم، ووجد مرة أخرى قِدر كبيرة وفيها رأسٌ كبيرٌ وبعض الأطراف مطبوخا بقمحٍ وأصنافٍ من هذا الجنس تفوت الإحصاء " [٢].

ومع أنه تعهد بأنه لن يتعقب كل ما رأى أو سمع واصل حديثه عن المجاعة وما فيها من أمور بشعة مستقبحة فقال : " وكان عند جامع ابن طولون قوم يتخطَّفونَ الناس، ووقع في حبالتهم شيخ كتبي بَدينٌ[٣] ممّن يتبيّعنا الكتب فأفلت بجريمة الذقن، وكذلك بعض قُوَّام جامع مصر وقع في حبالة قوم آخرين بالقرافة فتداركه الناس فخلص من الوهق [٤] وله حصاص[٥]، وأما من خرج من

(١) الإفادة والاعتبار، ٥٠ – ٥٢ .

(٢) الإفادة والاعتبار ٥٢ .

(٣) بدين : أي سمين .

(٤) الْوَهَقُ: بِفَتْحَتَيْنِ حَبْلٌ يُلْقَى فِي عُنُقِ الشَّخْصِ يُؤْخَذُ بِهِ وَيُوثَقُ . الفيومي : المصباح المنير ، ٣٤٧ .

(٥) حُصاص : أي ضراط . الخليل بن أحمد : كتاب العين ٣ / ١٤ .

أهله فلم يرجع إليهم فخلقٌ كثير وحكى لي من أثق به أنه اجتاز على امرأةٍ تجرية [١] وبين يديها ميت قد أنتفخ وتفجر وهي تأكل من أفخاذه فأنكر عليها فزعمت أنه زوجها، وكثير ما يدّعي الآكل أن المأكول ولده أو زوجه أو نحو ذلك، ورُئي مع عجوز صغير تأكله فاعتذرت بأن قالت إنّما هو ولد ابنتي وليس بأجنبي منّي ولئن آكله خير من أن يأكله غيري.وأشباه هذا كثير جداً حتى أنك لا تجد أحدا في ديار مصر إلّا وقد رأى شيئا من ذلك، حتى أرباب الزوايا والنساء في خدورهن.ومما شاع أيضا نبش القبور وأكل الموتى وبيع لحمهم، وهذه البلية التي شرحناها وجدت في جميع بلاد مصر ، ليس فيها بلد إلّا وقد أكل فيه الناس أكلا ذريعا من أسوان وقوص والفيوم والمحلة والإسكندرية ودمياط وسائر النواحي، وخبرني بعض أصحابي وهو تاجر مأمون حين ورد من الإسكندرية بكثرة ما عاين بها من ذلك، وأعجب ما حكى لي أنه عاين أرؤس خمسة صغارٍ مطبوخة في قدر واحدة بالتوابل الجيدة،وهذا المقدار من هذا الاقتصاص كافٍ فإني وإن كنت قد أسهبت أعتقد أني قد قصّرت" [٢] .

ثم تحدث عن انتشار جرائم القتل وكثرة الموتى ومشاهداته في ذلك فقال : " وأما القتل والفتك في النواحي فكثيرٌ فاشٍ في كلِّ فجٍّ ولاسيّما طريق الفيوم والإسكندرية، وقد كان بطريق الفيّوم ناس في مراكب يرخِّصون الأجرة على الركاب فإذا توسَّطوا بهم الطرق ذبحوهم وتساهموا أسلابهم، وظفر الوالي منهم بجماعة

(١) تجرية : من قبائل التجراي : وهم قوم يقطنون في شمال إثيوبيا ويعرفون بالتجراي وباللاتينية Tigray ولهجتهم تجرينيا أو التجرينيا وباللاتينية Tigrinya وأحيانا Tigrina وهي لسان شمال إثيوبيا ومرتفعات إرتريا. إدريس إبراهيم جميل : الحباب ملوك البحر وأهل السادة، ط/ مكتبة الثقافة – الدوحة، ١٧ .

(٢) الإفادة والاعتبار ، ٥٠ – ٥٣ .

فمثَّل بهم، وأقرَّ بعضهم عندما أُوجع ضربًا أنّ الذي خصّه دون رفقائه ستة آلاف دينار. وأما موت الفقراء هزلاً وجوعاً، فأمرٌ لا يطيق عمله إلّا الله سبحانه وتعالى وإنّما نذكر منه كالأنموذج يستدلُّ به اللبيبُ على فظاعة الأمر.فالذي شاهدناه بمصر والقاهرة وما تاخم ذلك أن الماشي أين كان لا يزال يقع قدمه أو بصره على ميتٍ ومن هو في السياق أو على جمعٍ كثير بهذا الحال، وكان يرفع عن القاهرة خاصة إلى الميضأة كل يوم ما بين مائة إلى خمسمائة، وأما مصر فليس لموتاها عدد ويُرمَونَ ولا يوارون، ثم بآخرة عجز عن رميهم فبقوا في الأسواق بين البيوت والدكاكين وفيها الميت منهم قد تقطع وإلى جانبه الشوّاء والخبّاز ونحوه.وأما الضواحي والقُرى، فإنه هلك أهلها قاطبةً إلّا ما شاء الله، وبعضهم انجلى عنها اللهمَّ إلّا الأمهات والقرى الكبار كقوص والاشمونين والمحلّة ونحو ذلك، ومع هذا أيضا فلم يبق فيها إلّا محلة القسم وإنّ المسافر ليمر بالبلدة فلا يجد فيها نافخُ ضرمة [1] ويجد البيوت مفتَّحة وأهلها موتى متقابلين، بعضهم قد رَمّ وبعضهم طري وربما وجد في البيت أثاثه وليس له من يأخذه.حدثني بذلك غير واحد كل منهم حكى ما يعضدُ به قول الآخر، قال أحدهم: دخلنا مدينة فلم نجد فيها حيواناً في الأرض ولا طائراً في السماء فتخللنا البيوت، فألفينا أهلها كما قال الله عز وجل: ﴿جعلناهم حصيدا خامدين﴾[2] فتجد ساكني كل دار موتى فيها الرجل وزوجته وأولاده، قال: ثم انتقلنا إلى بلدٍ آخر ذكر لنا أنه كان فيه أربعمائة دكّان للحياكة فوجدناها كالتي قبلها في الخراب، وأنَّ الحائك ميتٌ وأهله موتى حوله،فحضرني قوله

(١) نافخ ضرمة : أي نافخ نار بمعنى لم يبق بها أحد . ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ٥ / ٢٠٠ .

(٢) سورة الأنبياء الآية (١٥) .

تعالى: ﴿إن كانت إلّا صيحة واحدة فإذا هم خامدون﴾[1] ، قال: ثم انتقلنا إلى بلد آخر فوجدناه كالذي قبله ليس به أنيسٌ وهو مشجونٌ بموت أهله، قال: واحتجنا إلى الإقامة به لأجل الزراعة فاستأجرنا من ينقلُ الموتى مما حولنا إلى النيل كلّ عشرةٍ بدرهم، قال: ولكن قد بدلت البلاد بالذئاب والضباع ترفع لحوم أهلها.

ومن عجيب ما شاهدتُ أني كنتُ يوما مشرفاً على النيل مع جماعة فاجتاز علينا في نحو ساعة نحو عشرة موتى كأنّهم القرب المنفوخة هذا من غير أن نتصدى لرؤيتهم ولا أحطنا بعرض البحر، وفي غد ذلك اليوم ركبنا سفينة فرأينا أشلاء الموتى في الخليج وسائر الشطوط كما شبَّهها ابن حجر بأنابيش العنصل وخبرت عن عيّاد بفرضة تنيس أنه مرَّ به في بعض نهار أربعمائة غريق يقذف بهم النيل إلى البحر الملح، وأما طريق الشام فقد تواترت الأخبار أنّها صارت مزرعة لبني آدم بل محصرة، وأنه عادت مأدبة بلحومهم للطير والسّباع وأنّ طلابهم التي صحبتهم من منجلاهم هي التي تأكل فيهم.

وأول من هلك في هذه الطريق أهل الحِرَف عندما انتجعوا إلى الشام وانتشروا في هذه المسافة مع طولها كالجراد المحسوس، ولم تزل تتواصل هلكاهم إلى الآن وانتهى انتجاعهم إلى الموصل وبغداد وخراسان وإلى بلاد الروم والمغرب واليمن ومُزِّقوا كلّ مُمزَّق.وكثيراً ما كانت المرأة تملُص من صبيتِها في الزحام فيتضوَّرون حتى يموتوا" [2] .

ثم تحدث عن ظاهرة أخرى ظهرت في المجتمع المصري نتيجة انتشار تلك المجاعة وهي ظاهرة بيع الأحرار والأبناء ، وعدم توبة الناس بالرغم مما حل بهم من جوع وفناء حتى صارت بعض القرى خالية من سكانها فقال :

---

(١) سورة يس الآية (٢٩) .

(٢) الإفادة والاعتبار ، ٥٣ ، ٥٤ .

" وأما بيع الأحرار فشاع وذاع عند من لا يراقب الله، حتى تُباع الجارية الحسناء بدراهم معدودة، وعُرض عليَّ جاريتان مراهقتان بدينار واحد، ورأيتُ مرة أخرى جاريتين إحداهما بكر ينادَى عليها بأحد عشر درهما.وسألتني امرأة أن أشتري ابنتها وكانت جميلة دون البلوغ، بخمسة دراهم فعرَّفتها أن ذلك حرام، فقالت خذها هدية، وكثيرا ما يترامى النساء والوِلدان الذين فيهم صباحة على الناس بأن يشتروهم أو يبيعوهم، وقد استحل ذلك خلقٌ عظيم ووصل سبيهم إلى العراق وأعماق خراسان وغير ذلك"(١).

ثم تعجب من عدم اتعاظ الناس ورجوعهم إلى الله بالرغم من هذا البلاء فقال : " وأعجب من جميع ما اقتصصناهُ أنّ الناسَ مع ترادفِ هذه الآيات عاكفون على أصنامِ شهواتِهم لا يرعوُون منغمسون في بحر ضلالاتهم، كأنهم هم المستثنون، فمن ذلك اتخاذهم بيع الأحرار مُتَّجرا ومكتسبا، ومنه عهارتهم بهؤلاء النسوة حتى أن منهم من يزعُم أنه افتضَّ خمسين بِكراً ومنهم من يقول سبعين كلّ ذلك بالكسر " (٢).

ثم واصل حديثه عن خراب البلاد فقال : " وأما خراب البلاد والقُرى وخلوّ المساكن والدكاكين، فهو مما يلزم هذه الجملة التي اقتصصناها وناهيك أن القرية التي كانت تشتمل على زهاء عشرة آلاف نسمة تمرُّ عليها فتراها دمنة وربما وجد فيها وربما لم يوجد، وأما مصر فخلا معظمها وأما بيوت الخليج وزقاق البركة وحلب والمقس وما تاخم ذلك، فلم يبقَ فيها بيتٌ مسكونٌ أصلا بعد ما كان كلّ قطرٍ منها قدر مدينةٍ زحمةٍ من الناس، حتّى أنّ الرباع والمساكن والدكاكين التي في سرة القاهرة وخيارها أكثرها حال خراب، وإن ربعاً في أعمر موضع بالقاهرة فيه نيِّفٌ

(١) الإفادة والاعتبار ، ٥٤ .

(٢) نفسه، ٥٥ .

وخمسون بيتا كلّها خالية سوى أربعة بيوت أَسكنت من يحرس الموضع.ولم يبق لأهل المدينة وقود في تنانيرهم وأفرانهم وبيوتهم إلّا خشب السقوف والأبواب والزروب. ومما يقضي منه العجب أن جماعة من الذين ما زالوا مجدودين [١] سعدوا في دنياهم هذه السنة فمنهم من أثرى بسبب متجره في القمح، ومنهم من أثرى بسبب مال انتقل اليه بالإرث، ومنهم من حسنت حاله لا بسبب معروف، فتبارك من بيده القبض والبسط ولكلٍّ مخلوق من عنايته قسط[٢] .

ثم تحدث عن وضع النيل فقال : " وأما خبر النيل في هذه السنة، فإنه احترق في برمودة احتراقاً كثيراً وصار المقياس في أرضٍ جزر وانحسر الماء عنه نحو الجيزة، وظهر في وسطه جزيرة عظيمة طويلة ومقطعات أبنية وتغيّر الماءُ في ريحه وطعمه ثم تزايد التغير ثم انكشف أمره عن خضرة طحلبية كلّما تطاولت الأيام ظهرت وثرت كالتي ظهرت في أبيب السنة الخالية، ولم تزل الخضرة تتزايد إلى آخر شعبان، ثم تناقصت إلى أن ذهبت وبقي في الماء أخيراً نباتية منبثّة فقط، وطاب طعمه وريحه ثم أخذت في رمضان تنمى وتقوى جريته إلى اليوم السادس عشر منه، فقاس فيه ابن أبي الرداد قاع البركة فكان ذراعين وأخذ في زيادةٍ ضعيفة بأضعف من السنة الخالية، ولم يزل في زيادة ضعيفة إلى ثامن ذي القعدة وهو السابع عشر من مسرى فزاد إصبعا ثم وقف ثلاثة أيام، فأيقنَ الناس بالبلاء واستسلموا للهلَكة ثم أخذ في زيادات قوية أكثرها ذراع إلى ثالث ذي الحجّة وهو السادس من توت فبلغ خمس عشرة ذراعا وست عشرة إصبعا ثم أنحطَّ من يومه وأنهزم على فوره ومسَّ بعض البلاد محلة القسم فكأنما زارها طيف خياله في الحلم.

(١) كذا وردت في النسخ المطبوعة ولعلها (موجودين) الإفادة والاعتبار ، ٥٥ ، رحلة عبد اللطيف البغدادي ، ١٤١.

(٢) الإفادة والاعتبار ، ٥٥ .

وإنّما انتفع به ما كان من البلاد مطمئنّا فأروى المنخفضات كالغربية ونحوها، غير أن القُرى خالية من فلاح أو حرّاث أصلاً فهم كما قال الله تعالى: ﴿فأصبحوا لا يرى إلّا مساكنهم﴾[1]، وإنما أرباب الحِراث يجمعون شذاذهم ويلتقطون أفرادهم، وقد عزَّ الحرَّاث والبقرُ جدّا حتى يُباع الثور الواحد بسبعين دينارا والهزيل بدون ذلك، وكثير من البلاد ينحسر عنه الماء بغير حقِّه ولغير وقته، إذ ليس لها من يمسك الماء ويحبسه فيها فتبور لذلك مع ريّه، أو كثير ممّا روي يبور لعجزِ أهله عن تقاويه والقيام عليه، وكثير ممّا زُرع أكلته الدودة وكثيرٌ مما سلِم منها ضوي وعطب. ونهاية سِعر القمح في هذه السنة خمسة دنانير، وأما بقوص والإسكندرية فبلغ ستة دنانير " [2].

ثم واصل حديثه عن المجاعة في حوادث سنة ثمان وتسعين وخمسمائة فقال : " الفصل الثالث في حوادث سنة ثمان وتسعين وخمسمائة : ودخلت هذه السنة والأحوال التي شرحناها في السنة الخالية على ذلك النظام أو في تزايد، إلى زهاء نصفها فتناقص موت الفقراء لقلَّتهم لا لارتفاع السبب الموجب وتناقصَ أكلُ بني آدم ثم أنقطع خبره أصلا.وقلَّ خطف الأطعمة من الأسواق وذلك لفناء الصعاليك وقلَّتهم مِن المدينة، وانحطّت الأسعارُ حتى عاد الأردب بثلاثة دنانير لقلة الآكلين لا لكثرة المأكول، وصفت المدينة بأهلها، واختصرت واختصر جميع ما فيها على تلك النسبة وألِفَ الناس البلاء واستمروا على البلاء حتى عاد ذلك كأنه مزاج طبيعي.وحُكي لي أنه كان بمصر تسعمائة منسجٍ للحُصُر، فلم يبق إلّا خمسة عشر منسجا، وقِس على هذا سائر ما جرت العادة أن يكون بالمدينة من باعةٍ وخبازين

(١) سورة الأحقاف الآية (٢٥) .

(٢) نفسه، ٥٥ ، ٥٦ .

وعطّارين وأساكفة وخيّاطين وغير ذلك من الأصناف، فإنه لم يبق من كلّ صنفٍ من هؤلاء إلّا نحو ما بقي من الحصريين أو أقل من ذلك.

وأما الدجاج فعُدِم رأسا لولا أنه جُلب منه شيءٌ من الشام، وحكي لي أن رجلا مصريا شارف الفقر فأُلهِم أن اشترى من الشام دجاجا بستين دينارا، وباعها بالقاهرة على القماطين بنحو ثمانمائة دينار، ولما وُجد البيض بيع بيضة بدرهم ثم بيضتين ثم ثلاثا ثم أربعا واستمر على ذلك، وأما الفراريج فبِيعَ الفرّوجُ بمائة درهم ولبث برهة يباع الفروج بدينار فصاعدا.وأما الأفران فإنّها تُوقَد بأخشابِ الدُّور، فيَشتَرِي الفرّانُ الدار بالثمن البخس ويقد زروبه وأخشابه أياما ثم يشتري آخر، وربما كان فيهم من تُنشِّطه نذالته فيخرج ليلاً يجوس خلال الديار فيحتَطِبها ولا يجد ذاعراً " [1].

ثم واصل حديثه في وصف المجاعة فقال : " وكثيرا ما تُقفر الدار بمالِكها ولا يجدُ لها مشتريا فيفصِل أخشابها وأبوابها وسائر آلاتها فيبيعها ثم يطرحها مهدومةً وكذلك أيضا يفعلون بدور الكسرا . وأما الهلاليةُ ومعظم الشارعِ ودور الخليج وحارة الساسة والمقس وما تاخم ذلك فلم يبق فيها أنيس، وإنّما ترى مساكنهم خاوية على عروشها وكثيرا من أهلها موتى فيها، ومع ذلك فالقاهرة بالقياس إلى مصر في غاية العمارة وأهلها في غاية الكثرة.وأما الضواحي وسائر البلاد فيباب رأسا، حتى أن المسافر يسير في كل جهة أياما لا يصادف حيوانا إلّا الرِّمم ما خلا البلاد الكبار كقوص وأخميم والمحلة ودمياط والإسكندرية، فإنّ فيها بقايا، وأما ما عدا هذه وأمثالها فإنّ البلد الذي كان يحتوي على ألوف خالٍ أو كالخالي.وأما الأملاك ذوات الآجر المعتبرة، فأن معظمها خلا أو لم يبق دأب أهلها إلّا حراستها بسد أبوابها وتحصين مسالكها أو إسكانها من يحرسها بأجرة، اللهم إلّا

(١) الإفادة والاعتبار ، ٥٦ ، ٥٧ .

ما كان من الملك في قصبة المدينة فإن بعضه مسكون بأخف أجرة، وأعرف ربعا في أعمر موضع بالمدينة كانت أجرته في الشهر مائة وخمسين دينارا، فعادت في هذه السنة إلى نحو عشرين دينارا، وآخر في مثل موضعه كانت أجرته في الشهر ستة عشر دينارا، فعادت إلى فُويق الدينار، وجميع ما لم نذكره على هذا القياس أفهمه " [1].

ثم تحدث عن أعداد الموتى في تلك المجاعة فقال : " والذي دخل تحت الإحصاء من الموتى ممن كفَّن[2] وجرى له اسم في الديوان وضمّته الميضات في مدّة اثنين وعشرين شهراً أولها شوال من سنة ست وتسعين، وآخرها رجب من سنة ثمان وتسعين، مائة ألف وإحدى عشرة ألفا إلّا آحادا وهذا مع كثرته نزر في جنب الذين هلكوا في دارهم وفي أطراف المدينة وأصول الحيطان، وجميع ذلك نزر في جنب من هلك بمصر وما تاخمها، وجميع ذلك نزرفي جنب من أُكل في البلدين، وجميع ذلك نزرٌ جدا في جنب مَن هلك وأُكل في سائر البلاد والنواحي والطرقات وخاصة طريق الشام، فإنّه لم يرد أحدٌ من ناحيةٍ فسألته عن الطُّرق إلّا ذكر أنها مزروعةً بالأشلاء والرِّمَم وهكذا ما سلكته منها.ثم أنه وقع بالفيّوم والغربية ودمياط والإسكندرية موتان عظيم ووباءٌ شديد لا سيما عند وقت الزراعة، فلعلّه يموت على المحراث الواحد عدة فلاحين، وحُكي لنا أن الذين بذروا غير الذين حرثوا وكذلك الذين حصدوا.

وباشرنا زراعةً لبعض الرؤساء فأرسل من يقوم بأمرِ الزراعة فجاء الخبر بموتهم أجمعين، فأرسل عِوضهم فمات أكثرهم، هكذا مراتٍ في عدة جهات وسمعنا

(١) نفسه ، ٥٧ ، ٥٨ .

(٢) كف في النسخة المطبوعة من رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر ١٤٥ ، والصواب ما أثبته عن الإفادة والاعتبار، ٥٨ .

من الثقات عن الإسكندرية أن الإمام صلَّى يوم الجمعة على سبعمائة جنازة، وأن تركةً واحدة انتقلت في مدة شهر إلى أربعة عشر وارثا، وأن طائفة كبيرةً من أهلها تزيد على عشرين ألفا انتقلوا إلى برقة وأعمالها فعمروها وقطنوها، وهذه برقة كانت مملكة عظيمة وخربت في زمن اليازوري وعلى يديه، وكان وزيرا ظالما، فجلا عنها أهلها وسكن كثير منهم بالإسكندرية، وكان هذا الحادث تقاص في الطبيعة" [١] .

ثم رجع مرة أخرى يتحدث عن بشاعات المجاعة فقال : " ومن عجيب ما اتفق لشيخ من أطباء يهود مصر ممّن ينتابني سوى من سبق ذكرهم، أن استدعاه رجل زبونه ذو شارة وشهرة بستر ودين وجدة، فلمّا حصل في المنزل أغلق الباب ووثب عليه فجعل في عنقه وهقا ومَرَتَ المريض خصيتيه غيرَ أنه لم تكن له معرفة بالقتل فطالت المناوشة وعلا ضجيجه فتسامع الناس ودخلوا، فخلَّصوا الشيخ وبه رمقٌ يسير وقد كسرت ثنيّتاه وحُمل إلى منزله مغشيا عليه وأحضروا الفاعل إلى الوالي فسأله ما حملك على ما فعلت، فقال: الجوع فضربه ونفاه " [٢].

ثم تكلم عن طامة أخرى حلت بمصر بخلاف المجاعة والوباء ألا وهي الزلزل الذي حدث بمصر وامتد إلى بعض البلاد المجاورة فقال : " واتفق سحرة يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان وهو الخامس والعشرون من بشنس، أن حدثت زلزلة عظيمة اضطّرب لها النّاس، فهبّوا مِن مضاجِعهم مدهوشين، وضجوا إلى الله سبحانه، ولبثت مدة طويلة كانت حركتها كالغربلة أو كخفق جناح الطائر وانقضَت على ثلاث رجفات قويّة مادَت بها الأبنية واصطفقت الأبواب وصرصرت السقوف والأخشاب، وتداعى من الأبنية ما كان واهيا أو مشرفا عاليا ثم عاودت في نصف نهار يوم الاثنين، إلّا أنها لم يحس بها أكثر الناس لخفائها وقِصر زمانِها

(١) الإفادة والاعتبار ، ٥٨ .

(٢) نفسه ، ٥٨ ، ٥٩ .

وكان في هذه الليلة بردٌ شديدٌ يحوج إلى دثِار خلافَ العادة، وفي نهار ذلك اليوم تبدّل بِحرٍّ شديد وسموم مفرط يضيق الأنفاس ويأخذ بالكظم وقلما تحدث زلزلة بمصر بهذه القوة.

ثم أخذت الأخبار تتواترُ بحدوث الزلزلة في النواحي النائية والبلاد النازحة في تلك الساعة بعينها، ولذا صحَّ عندي أنها حركت في ساعة واحدة طابقةً من قوص إلى دمياط والإسكندرية ثم بلاد الساحل بأسرها والشام طولا وعرضا وتعفّت بلادٌ كثيرةٌ بحيث لم يَبقَ لها أثرٌ وهلك مِن الناس خلقٌ عظيم وأمَمٌ لا تُحصى، ولا أعرف في الشام بلدا أحسن سلامة من القدس فإنّها لم تُنْكَ فيه إلّا ما لا بال، كانت نكاية الزلزلة ببلاد الإفرنج أكثر منها في بلاد الإسلام كثيرا.وسمعنا أنّ الزلزلة وصلت إلى أخلاط وتخومها وإلى جزيرة قبرص، وأن البحر ارتطم وتموَّجَ وتشوَّهت مناظره فانفرق في مواضعَ وصارت فِرقه كالأطواد وعادت المراكب على الأرض وقذف سمكا كثيرا على ساحله.ووردت كتب من الشام ودمشق وحماه تتضمن خبر الزلزلة، ومما اتصل لي من ذلك كتابان أوردتهما بلفظهما" [1]ثم أورد نص الكتابين .

ولم ينس عبد اللطيف البغدادي مهنته كطبيب فأخذ يشرح بعض الأمور الطبية قائلا : " ومن عجيب ما شاهدنا أن جماعةً ممّن ينتابني في الطبّ وصلوا إلى كتاب التشريح، فكان يعسر أفهامهم، وفهمهم لقصور القول عن العيان فأخذنا أن بالمقس تلاقيه رمم كثيرة فخرجنا إليه فرأينا تلا من رِمَمٍ له مسافة طويلة، يكاد يكون ترابه أقلّ من الموتى به، نحدسُ ما يظهر منهم للعيان بعشرين ألفا فصاعدا وهم على طبقات في قرب العهد وبُعدِه.فشاهدنا من شكل العظام ومفاصِلها وكيفية اتصالها وتناسبها وأوضاعها ما أفادنا علما لا نستفيده من الكتب، إمّا أنها سكتت

(١) الإفادة والاعتبار ، ٥٩ .

عنها أو لا يفي لفظها بالدلالة عليه أن يكون ما شاهدناه مُخالفا لِما قيل فيها، والحسُّ أقوى دليلاً من السمع، فإنّ جالينوس وإن كان في الدرجة العُليا من التحرِّي والتحفُّظ فيما يباشره ويحكيه، فإنَّ الحسَّ أصدق منه.ثم بعد ذلك يتخيل لقوله مخرج إن أمكن، فمن ذلك عَظم الفك الأسفل، فإن الكل قد أطبقوا على أنه عظمان بمفصلٍ وثيقٍ عن الحنك، وقولنا الكلّ إنَّما نُعني به ها هنا جالينوس وحده، فإنه هو الذي باشر التشريح بنفسه وجعله دأبه ونصب عينيه وصنَّف فيه عدة كتب معظمها موجودٌ لدينا والباقي لم يخرج إلى لسان العرب.

والذي شاهدناه مِن حال هذا العضو أنّه عَظمٌ واحد وليس فيه مفصلٌ ولا درز أصلا، واعتبرناه ما شاء الله من المرات في أشخاص كثيرة تزيد على ألفي جمجمة بأصنافٍ من الاعتبارات فلم نجده إلّا عظما واحدا من كلِّ وجه، ثم أننا استعنا بجماعة مفترقة اعتبروه بحضرتنا وفي غيبتنا، فلم يزيدوا على ما شاهدوه منه وحكيناه، وكذلك في أشياء أخرى غير هذه وليت مكَّنتنا المقادير بالمساعدة ووضَعنا مقالةً في ذلك تحكي في ما شاهدناه وما علمنا من كتب جالينوس، ثم أني اعتبرت هذا العَظم أيضا بمدافن بوصير القديمة المقدَّم ذكرها، فوجدته على ما حكيت ليس فيه مفصلٌ ولا درز، ومن شأن الدروز الخفية والمفاصل الوثيقة إذا تقادم عليها الزمان أن تظهر وتتفرّق وهذا الفك الأسفل لا يوجد في جميع أحواله إلّا قطعة واحدة.

وأما العجز مع العجب ذكر جالينوس أنه مؤلَّفٌ من ستَّةِ أعظم ووجدته أنا عظما واحدا واعتبرته بكلّ وجهٍ من الاعتبار فوجدته عظما واحدا، ثم أني اعتبرته في جثة أخرى فوجدته ستة أعظم كما قال جالينوس وكذلك وجدته في سائر الجثث

على ما قال إلّا في جُثَّتين فقط فإنِّي وجدته فيهما عظما واحدا وهو في الجميع موثّق المفاصل ولست واثقاً بذلك كما أنا واثق باتّحاد الفك الأسفل " (١).

ثم تحدث عن خلو البلاد من أهلها نتيجة تلك النكبات ، وكثرة ما بها من جثث فقال : " ثم أننا دخلنا مصر فرأينا منها دروباً وأسواقا عظيمةً كانت مغتصَّة بالزحام، والجميع خالٍ ليس فيه حيوانٌ إلّا عابر سبيل في بعض الأحايين، وأن المارّ فيها ليستوحش ومع ذلك، فقلما ينفكُّ قطر منها عن جثَّةٍ وعظامٍ متفرقة حتى خرجنا إلى موضعٍ يسمّى إسكرجة فرعون، فرأينا الأقطار كلها مغتصّة بالجثث والرِّمم وغلبت على الآكام بحيث جلَّلتها وكادت تغلب على ترابها ورأينا في هذه الإسكرجة وهي وهدة عظيمة حينما أشرفناعليها الجماجم بيضا وسودا، ووجدنا بعضها على بعض طبقات، وقد أخفى كثرتها وتراكمها سائر العظام حتى كأنها رءوسٌ لم يكن معها أبدان، يشبِّهها من ينظُرُها ببطيخٍ قد قُطع وجُمع حتى صار كالبيدر، ثم رأيتها بعد أيام وقد عرقتها الشمس وابيضَّت فشبهتها ببيضِ النعام المتراكم " (٢).

ثم تحدث عن بعض الأمور العجيبة والغريبة فقال : " ووجدتُ في ذي الحجة بمصر امرأةً ذَبحت صبيّا لتأكُله، فأُخذت وغرِّقت وقد ارتفعت هذه الحال وانقطع خبرها ومشاهدتها لم يوجد سوى هذه المرأة، ومن عجيب الكائنات في هذه المدّة أن مولودا في سبع وتسعين وُلد برأسين وولد مولودٌ آخر أبيض الشعر، ورأيته وليس هو كبياض الشيب، بل يحيل إلى صهويّة ما،ولدت في هذه السنة بغلة ولدت ميتا وبقي في دار الوالي أياما كثيرة، وفي سنة ثمان وتسعين وجدت

(١) الإفادة والاعتبار ، ٦١ ، ٦٢ .

(٢) الإفادة والاعتبار ، ٦٢ .

سخلة ذات لبن كان يخرج من حلمتها كأنه خيطٌ دقيق وأُحضرت بدار الوالي مرات، وآخر ما أحضرت وعمرها أربعة أشهر" (١).

ثم ختم رحلته وكتابه بالحديث عن النيل وبداية زيادته وانتهاء المحنة بقوله : " وأما خبر النيل في هذه السنة فنحن نسوقه باختصار أمّا أولا، فإنه احترق في طوبة، ثم تزايد احتراقه حتى صار مخاضات للناس والدواب، وظهرت الحفرة فيه في جمادى الآخرة الكائن في برمهات، وتزايدت جدا في رجب حتى ظهرت في طعمه ولونه وريحه ثم تناقصت حتى ذهبت أصلا وانتهى احتراقه في رمضان، وأنحسر عن المقياس نحو ثمانمائة ذراع، وأطالع أبي الرداد باستقرار الماء يوم الثلاثاء لخمس بقين من بؤونة وأربعٍ بقين من رمضان من سنة ثمان وتسعين فكان القاع ذراعا ونصفا وكان في السنة الخالية ذراعين، وابتدأ في الزيادة في السنة الخالية من هذا اليوم، فأمّا في هذه السنة فإنَّ زيادته تأخَّرت إلى الخامس والعشرين من أبيب، لم يزد في هذه المدة سوى أصابع، حتى ساءت ظنونُ الناس وشملهم اليأس وظنوا أنّ حادثا وقع بفوهته وعند مبدأ جريته، ثم أخذ في الزيادة حتى أنسلخ أبيب وهو على ثلاث أذرعٍ ووقف يومين، فاشتدّ هلع الناس لخروجه في التوقف عن المعتاد، ثم أنه أندفع بقوةٍ وزيادات متداركة وجبالٍ من المياه متدافعة، فزاد ثماني أذرع في مدّة عشرةِ أيام منها ثلاث أذرع متوالية، وانتهى في رابع توت وهو الثاني عشر من ذي الحجة إلى ستَّ عشرة ذراعا تنقصُ إصبعا وقام يومين، ثم أخذ ينحطُّ متباطئا وينصرفُ رويدا، فهذا ما قصدت اقتصاصه من أحواله هذه الكائنة، فليكن آخر المقالة ومنتهى الكتاب " (٢).

(١) نفسه ، ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) الإفادة والاعتبار ، ٦٣ .

المبحث الثاني

الحقيقة والمبالغة في روايات عبد اللطيف البغدادي عن المجاعة

إن الكثير من المعلومات التي ذكرها عبد اللطيف البغدادي عن المجاعة في مصر تحتوي على المبالغات غير المقبولة لا عقلا ولا عرفا ولا شرعا ولا تاريخا ، فالعقل لا يقبل أن يقدم الإنسان على قتل طفله ثم أكل لحمه ، أو قتل شخص لأكله ، وكذلك العرف في المجتمع الإسلامي في العصر الأيوبي يأبى مثل هذه التصرفات غير المقبولة ، كما أن الإسلام ينهى عن أكل الميتة من الحيوانات وكذلك بالنسبة لميتة الآدمي ، كما يحرم قتل النفس التي حرمها الله إلا بالحق ، وأما تاريخيا فقد تعرضت مصر للكثير من المجاعات في فترات تاريخها المختلفة قبل وبعد هذه المجاعة ولم نجد أحدا من المؤرخين يذكر مثل هذه البشاعات وبخاصة أكل لحوم الآدميين والأطفال والتي أوردها البغدادي . وإن كان بعض المؤرخين قد تحدثوا في بعض المجاعات عن أكل الكلاب والقطط .

وإن كنت لا أنفي حدوث بعض من هذه الأمور التي ذكرها البغدادي ، لكن ما أستبعده هذه الصورة البشعة التي رسمها عبد اللطيف البغدادي للمجتمع المصري إبان تلك المجاعة ، وللأسف نقل بعض المؤرخين رواياته على أنها روايات صادقة مسلم بوقوعها من غير نقد ولا تفنيد لمحتواها وفي هذا الفصل سأقوم بمشيئة الله تعالى بالرد والتفنيد لكل هذه الروايات التي ذكرها هذا الرحالة وتناقلها عنه بعض المؤرخين .

ولذا سأقسم روايات عبد اللطيف البغدادي عن المجاعة إلى عدة أقسام :

١- روايات شاهدها ورآها بنفسه وهي هي حوالي خمس روايات فقط ، وهذه الروايات الخمس يمكن أن نقبلها – على بشاعتها ومخالفتها للمألوف – حتى لا نشكك في كل رواياته وكلامه، وهذه الروايات التي أوردها وصرح بمشاهدتها قليلة جدا إذا ما قارناها ببقية روايات رحلته عن المجاعة، وهذه الروايات كالتالي: قوله: " ورأيت صغيراً مشويا في قفة" (١)، وقوله: " ولقد رأيت امرأةً يسحبها الرّعاعُ في السوق وقد ظفر معها بصغير مشويٍّ تأكل منه" (٢) ، وقوله : " ورأيتُ قبل ذلك بيومين صبيا نحو الرهاق مشوياً وقد أخذ به شابان أقرَّا بقتله وشيِّه وأكلِ بعضه " (٣) ، وقوله : " ومن عجيب ما شاهدتُ أني كنتُ يوما مشرفاً على النيل مع جماعة فاجتاز علينا في نحو ساعة نحو عشرة موتى كأنّهم القرب المنفوخة هذا من غير أن نتصدى لرؤيتهم ولا أحطنا بعرض البحر، وفي غد ذلك اليوم ركبنا سفينة فرأينا أشلاء الموتى في الخليج وسائر الشطوط " (٤) ، وقوله : " وسألتني امرأة أن أشتري ابنتها وكانت جميلة دون البلوغ، بخمسة دراهم فعرَّفتها أن ذلك حرام" (٥) .

٢- روايات لم يشاهدها بنفسه وإنما حكيت له وسمعها ، ولم يصرح لنا باسم من قص له تلك الروايات حتى نعلم مدى صدقه أو كذبه ، وهذه الروايات محل شك ؛ لأننا لا نعرف من شاهدها حتى نحكم على صدقه وكذبه ، ومعظم هذه الروايات لا نستطيع تصديقها لما تحويه من فظائع لا يمكن قبولها، وذلك مثل

(١) الإفادة والاعتبار ، ٤٩ .
(٢) نفسه .
(٣) نفسه .
(٤) نفسه ، ٥٤ .
(٥) نفسه .

قوله: "وحكى لي عدة نساء أنه يُتوثَّب عليهنَّ لاقتناص أولادهن ويحامين عنهم بجهدهن " [١] ، وقوله : " وحكى لنا رجل أنه كان له صديق أدقع في هذه النازلة فدعاه صديقه هذا إلى منزله ليأكل عنده على ما جرت به عادتهما قبل، فلما دخل منزله وجد عنده جماعة عليهم رثاثة الفقر وبين أيديهم طبيخٌ كبير اللحم وليس معه خبز، فرابه ذلك وطلب المرحاض فصادف عنده خزانة مشحونة برمم الآدمي وباللّحم الطري فارتاع وخرج فارّاً" [٢] ، وقوله : " ومما شاع وسُمع من لفظ الوالي أن امرأة أتته سافرةً مذعورةً تذكر أنها قابِلة، وأنّ قوماً استدعوها وقدّموا لها صحنا فيه سكباج مُحكم الصّنعة مكمَّل التوابل فألْفَته كثير اللحم، مبايناً اللّحمَ المعهود، فتقززت منه ثم وجدت خلوة ببنت صغيرة فسألتها عن اللحم، فقالت أنها فلانةً السمينة دخلت لتزورنا فذبحها أبي وها هي معلقة إرباً، فقامت القابلة إلى الخزانة فوجدتها أنابير لحمٍ فلمّا قصّت على الوالي القصة أرسل معها من هجَم الدار وأخذ من فيها وهرب صاحب المنزل ثم صانع عن نفسه في خُفية بثلاثمائة دينار ليحقن بذلك دمه" [٣] ، وقوله : " وحكى لي من أثق به أنه اجتاز على امرأةٍ تجرية وبين يديها ميت قد أنتفخ وتفجر وهي تأكل من أفخاده فأنكر عليها فزعمت أنه زوجها" [٤] ، وقوله : " وخبرني بعض أصحابي وهو تاجر مأمون حين ورد من الإسكندرية بكثرة ما عاين بها من ذلك" [٥]، وقال : " وأعجب ما حكى لي أنه عاين أرؤس خمسة

(١) نفسه ، ٥٠ .
(٢) الإفادة والاعتبار ، ٥٠ .
(٣) نفسه ، ٥١ .
(٤) نفسه ، ٥٢ .
(٥) نفسه .

صغارٍ مطبوخة في قدر واحدة بالتوابل الجيدة " [١]، وقوله : " حدثني بذلك غير واحد كل منهم حكى ما يعضدُ به قول الآخر، قال أحدهم: دخلنا مدينة فلم نجد فيها حيواناً في الأرض ولا طائراً في السماء" [٢]، وقوله : " وحُكي لي أنه كان بمصر تسعمائة منسجٍ للحُصُر، فلم يبق إلّا خمسة عشر منسجا" [٣] ، وقوله : " وحكي لي أن رجلا مصريا شارف الفقر فأُلهِم أن اشترى من الشام دجاجا بستين دينارا، وباعها بالقاهرة على القماطين بنحو ثمانمائة دينار" [٤] . وقوله : " وسمعنا من الثقات عن الإسكندرية أن الإمام صلَّى يوم الجمعة على سبعمائة جنازة، وأن تركةً واحدة انتقلت في مدة شهر إلى أربعة عشر وارثا، وأن طائفة كبيرةً من أهلها تزيد على عشرين ألفا انتقلوا إلى برقة وأعمالها فعمروها وقطنوها " [٥] .

٣- روايات ذكرها مرسلة بدون أن ينسبها إلى راو أو يذكر من حدثه بها وهذه الروايات أيضا لا نقبلها ، لعدم المعرفة بصدق أو كذب نقلة هذه الأخبار ، ولبشاعة تلك الروايات ومنافاتها للعقل والشرع والعرف ، وبالتالي لا تقبل مثل هذه الروايات إلا من صادق ، ومن هذه الروايات : قوله : " ووجد في رمضان وبمصر رجل وقد جُرِّدت عظامه عن اللحم، فأُكل وبقي قفصا كما يفعل الطباخون بالغنم" [٦]، ففي هذه الرواية لم يبين لنا من وجد هذا الرجل، وكيف

---

(١) نفسه .

(٢) الإفادة والاعتبار ، ٥٣ ، وهذه الرواية يمكن قبولها.

(٣) نفسه ، ٥٧.

(٤) نفسه ، وهذه الرواية يمكن قبولها.

(٥) نفسه ، ٥٨.

(٦) نفسه ، ٤٩ .

وصل إليه هذا الخبر ، ومن أخبره به ، بل بنى روايته على مجهول ، ومثل هذا لا يعد تاريخا بل هو من قبيل القصص والروايات التي تروى للتندر وللتسلية ، ومنه قوله أيضا: " ووجد بأطفيح عند عطار، عدة خوابي مملوءة بلحم الآدميّ وعليه الماء والملح فسألوه عن علة اتخاذه والاستكثار منه، فقال: خِفت إذا دام الجدب أن يهزل الناس" (١)، وقوله : " وكان جماعاتٌ من الفقراء قد آووا إلى الجيزة وتستّروا ببيوت طين، يتصيّدون فيها الناس وفطن لهم وطلب قتلهم فهربوا، ووَجد في بيوتهم من عظام بني آدم شيء كثير، وخبرني الثقة الذي وجد في بيوتهم أربعمائة جمجمة " (٢)، وقوله أيضا : " ووجد مرة أخرى قِدر كبيرة وفيها رأسٌ كبيرٌ وبعض الأطراف مطبوخا بقمحٍ وأصنافٍ من هذا الجنس تفوت الإحصاء" (٣) ، وقوله : " وكان عند جامع ابن طولون قوم يتخطَّفونَ الناس، ووقع في حبالتهم شيخ كتبي بَدينٌ ممّن يتبيّعنا الكتب فأفلت بجريمة الذقن، وكذلك بعض قُوَّام جامع مصر وقع في حبالة قوم آخرين بالقرافة فتداركه الناس فخلص من الوهق وله حصاص وأما من خرج من أهله فلم يرجع إليهم فخلقٌ كثير" (٤) ، وقوله : " ورُئي مع عجوز صغير تأكله فاعتذرت بأن قالت إنّما هو ولد ابنتي وليس بأجنبي منّي ولئن آكله خير من أن يأكله غيري" (٥) . . وقوله : " وقد كان بطريق الفيّوم ناس في مراكب يرخِّصون الأجرة على

(١) الإفادة والاعتبار ، ٥١ .
(٢) نفسه ، ٥١ .
(٣) نفسه ، ٥٢ .
(٤) نفسه ، ٥٢ .
(٥) نفسه .

الركاب فإذا توسَّطوا بهم الطرق ذبحوهم وتساهموا أسلابهم" [١] . وقوله : " وكثيرا ما يترامى النساء والوِلدان الذين فيهم صباحة على الناس بأن يشتروهم أو يبيعوهم، وقد استحل ذلك خلقٌ عظيم ووصل سبيهم إلى العراق وأعماق خراسان وغير ذلك" [٢] ، وقوله : " ووجدتُ في ذي الحجة بمصر امرأةً ذَبحت صبيّا لتأكُله، فأُخذت وغرِّقت " [٣] .

٤- روايات نص على عدم صدقها ووصفها بأنها مزعومة ، وهذه الروايات أيضا لا تصدق وهي قليلة ، ومنها : قوله :" ومعه رجل وامرأة يزعُم الناس أنهما أبواه فأمر بإحراقهما " [٤] ، وزعمت أنه كان يهمُّ بكلِّ عضوٍ يظهر منه أن يأكله وأنَّ الولد بقيَ مدةً مريضا لشدة تجاذبه بين المرأة والمفترس" [٥] ، وقوله : " ومنه عهارتهم بهؤلاء النسوة حتى أن منهم من يزعُم أنه افتضَّ خمسين بِكراً ومنهم من يقول سبعين " [٦] .

هذا باختصار ملخص لأقسام الروايات التي ذكرها عبد اللطيف البغدادي عن المجاعة ، وإذا ما أردنا أن نقيم تلك الروايات أو نتحدث عن الحقيقة والمبالغة فيها فإننا سنجد أن معظمها يسوده المبالغة نتيجة عدم مشاهدته إلا للقليل منها ، وعدم تثبته من بعضها ؛ فقد ذكرها كما سمعها أو كما حكيت له من غير نقد ولا تمحيص ولا محاولة حتى للوقوف على حقيقة ما سمع أو ما روي ، وللأسف أن من بعده

(١) نفسه ، ٥٣ .
(٢) الإفادة والاعتبار ، ٥٤ .
(٣) نفسه ، ٦٢ .
(٤) نفسه ، ٤٩ .
(٥) نفسه ، ٥٠ .
(٦) نفسه ، ٥٥ .

من المؤرخين ممن ذكر المجاعة قد اعتمدوا على كلامه هذا فرووه إما بنصه ، أو بمعناه ، أو ملخصا موجزا ، على أنه كلام مسلم به ولم يخضعوه للنقد أو التفنيد اعتمادا على أنه كان مشاهدا للأحداث معاصرا لها .

وقد اكتفى عبد اللطيف البغدادي بتبرير سبب انتشار أكل لحوم البشر بشدة المجاعة ، ولم يقدم لنا غير هذا السبب ، وإن كان هذا لا يبرر لجوء البعض إلى أكل البشر ، ولو أنه قدم لنا وصفا دقيقا لهؤلاء المتهمين بارتكاب هذه البشاعات ، أو أعراقهم وأجناسهم لأراحنا ، لكنه صور الأمر وكأنه أصبح سمة عامة للمجتمع ، وأصبح مما اعتاده الناس ولا يعجبون لوقوعه وفي هذا يقول : " وحينما نشم الفقراء في آكل بني آدم كأن الناس يتناقلون أخبارهم ويفيضون في ذلك استفظاعا لأمره وتعجّبا من ندوره، ثم اشتد قربهم إليه واعتيادهم عليه بحيث اتّخذوه معيشةً ومطيّة ومدَّخرا وتفنَّنوا فيه، وفشا عنهم ووُجِد بكلِّ مكان من ديار مصر، فسقط حينئذ التعجب والاستبشاع واستهجن الكلام فيه والسماع له .

ولقد رأيت امرأةً يسحبها الرّعاعُ في السوق وقد ظفر معها بصغير مشويٍّ تأكل منه، وأهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شئونهم وليس فيهم من يعجب لذلك أو ينكره، فعاد تعجبي منهم أشد وما ذلك إلّا لكثرة تكرُّرِه على إحساسهم حتى صار في حكم المألوف الذي لا يستحقُّ أن يُتعجب منه" (١).

وهذا الوصف المبالغ فيه جدا من عبد اللطيف البغدادي يدل على افتراءاته وادعاءاته على المجتمع المصري ، وبالتالي نشكك في معظم رواياته السابقة ، والتي يحكم فيها بأن هذه العادات برغم بشاعتها كانت شائعة، لكن الحقيقة والواقع

(١) الإفادة والاعتبار ، ٤٩ .

يدلان على عدم شيوع هذه الظاهرة في المجتمع المصري يومئذ وإن كنا لا ننفي وقوع بعض الحالات الفردية ، والدليل على ذلك عدم ورود هذه

الأمور بتفاصيلها عند المعاصرين لهذه الأحداث من المؤرخين [١] ، وأن مصدر معلومات المؤرخين الذين ذكروا هذه المجاعة هو عبد اللطيف البغدادي فقط [٢] .

---

(١) من هؤلاء المؤرخين المعاصرين الذين ذكروا المجاعة بمصر ولم يذكروا تفاصيل لتلك الفظائع : ابن الأثير(أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣ م) : الكامل في التاريخ ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري ، الناشر: دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م ١٠ / ١٨١ ، وابن العبري (أبو الفرج جمال الدين ابن العبري ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦): تاريخ الزمان، تعريب : الأب إسحاق أرملة، ط/ دار المشرق – بيروت ، ١٩٩١م ، ٢٣٤ ، وابن واصل (محمَّد بن سالم بن نصر الله بن سالم ابن واصل ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨ م) : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق: الدكتور جمال الدين الشيال، ط/ دار الكتب والوثائق القومية – المطبعة الأميرية- القاهرة، ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧ م ٣ / ١٢٧ ، وابن نظيف الحموي (أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف الحموي ت ق ٧ هـ / ١٣م) : التاريخ المنصوري (تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان) ، تحقيق: دكتور أبو العبد دودو ، ط/ مطبعة الحجاز / مطبوعات مجمع اللغة العربية – دمشق ، ١٤ .

(٢) ومن بين المؤرخين الذين أوردوا تلك الفظائع في المجاعة ونقلوا عن عبد اللطيف البغدادي: سبط بن الجوزي (شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قِزْأُوغلي بن عبد الله ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م): مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تحقيق: إبراهيم الزيبق، ط/ دار الرسالة العالمية- دمشق، الطبعة الأولى ١٤٣٤ هـ / ٢٠١٣ م ٢٢ / ٩٠ ، أبو شامة (أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٧ م): تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، ط / دار الجيل – بيروت، ١٩، ابن أيبك (أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري ت ٧٣٦ هـ / ١٣٣٧ م): كنز الدرر وجامع الغرر ، جـ ٧ تحقيق : د/ سعيد عبد الفتاح عاشور ، ط/ عيسى البابي الحلبي، ١٣٩١ هـ – ١٩٧٢ م ٧ / ١٤٩ ، الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري ، =ط/ دار الكتاب العربي- بيروت ، الطبعة: الثانية، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣م ٤٢ / ٣١ – ٣٦ ، وابن كثير (أبو

فمبالغاته "وخياله الخصب، صورا له أن المصريين كانوا يأكلون الجثث، وكانوا يصطادون الرجال بالحيلة ليأكلوهم، وأنه شاهد البعض وهم يأكلون امرأة سمينة، ولا أعرف كيف صارت سمينة في وقت القحط والجفاف، والغريب أن كتابات البغدادي ظلت مرجعًا للكثير من الكتاب العرب ... ونقلوا عنه ما جاء بكتابه" (١) .

وهذه الادعاءات جعلت مقدم رحلة البغدادي الدكتور/ عبد الرحمن عبد الله الشيخ يحاول أن يفسر سبب وجود أكل لحوم البشر في المجتمع المصري فيقول :

" فما ذكره البغدادي عن شيوع أكل لحم البشر أثناء المجاعة التي حلت بمصر في السنين الأخيرة من القرن السادس الهجري / الثاني عشر للميلاد مسألة في حاجة إلى تفسير ، كما أنها ذات دلالات على التركيب السكاني في مصر في هذه الفترة ، لقد قدم لنا البغدادي صورا بشعة عن امرأة تأكل فخذ زوجها ميتا، وآخرين يتنازعون وليدا لحيما أي سمينا ، وعن جماعة يطبخون الأعضاء الآدمية ، ويحدثنا أن عقاب من كان يفعل ذلك هو الحرق ، وبذلك يشوى فيجتمع على جثته المشوية خلق يأكلونه ، وبذلك يصبح الآكل مأكولا ... الخ ، وفي الوقت نفسه فإن البغدادي يقدم لنا إشارات تعيننا على فهم ذلك ، فهو يذكر أن امرأة تجرية فعلت ذلك ، وقبائل التجريين أو التجرانيين Tigre ، هي قبائل سوداء من أطراف

الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٣ م): البداية والنهاية ، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي ، ط/ دار هجر للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى، ٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م ١٦ / ٧٠٣ ، العيني (بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى العيني ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (العصر الأيوبي) ، تحقيق : محمود رزق محمود ، ط/ مطبعة دار الكتب والوثائق القومية – القاهرة، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م ، ٣ / ١٢٩ – ١٣٣ . وغيرهم .

(١) جريدة الدستور : مقال للواء حمدي البطران بعنوان (أدب الرحلات) ، الاثنين ٢٥ يونيو ٢٠١٨ م .

الحبشة ولم يقم البغدادي بدور الانثروبولوجي فيعين أعراق من فعلوا ذلك ، ولو أنه فعل لأراحنا وفسر لنا كثيرا مما غمض علينا . وفي سياق آخر يحدثنا عن امرأة من (الأجنلا) [١] ذات مال ويسار كان زوجها غائبا في الخدمة ، ويتضح من الاسم (أجنلا) أيضا أن المرأة ذات أصول تعود بها إلى شرق أفريقيا أو وسطها ، ولا يبعد أن تكون من قبائل الجلا ، وذكر البغدادي أن زوجها كان غائبا في الخدمة ، تعني أنه من حرس الحدود مثلا أو من العاملين في الخدمات المساعدة للجندية .." [٢] .

ولعل مثل هذه الصور الاستثنائية التي ساقها البغدادي لم يدعمها بما يشبه البحث الأنثرلوجي، الذي قد يجيء في سياقه أن مصر كانت في وضع يسمح لها باستقبال هجرات من الجنوب، سواء علي شكل تسلل إرادي سلمي، أو علي شكل جلب رقيق، وقد أحضر هؤلاء معهم تراث الثقافة البدائية، بما في ذلك أكل لحم البشر، لكن سرعان ما تلاشي هذا بفعل التأثيرات الحضارية والدينية المصرية، ومع هذا فقد ظل هذا مخزوناً في اللغة والتعبيرات، فالحديث عن (بلاد نمنم) ظل يتردد فترة طويلة علي لسان الأمهات والجدات، والتحذيرات من نساء سودوات لهن ذيول ظل يتكرر في بعض البيئات، وبعض الأخوة، في بعض البيئات إذا أثرت سخطه، هددك بأن يأكلك " [٣] .

فالدكتور / عبد الرحمن الشيخ يفسر لنا مسألة أكل لحوم البشر في هذه المجاعة بأنه نتيجة وجود قبائل من (التجرانيين) ، أو من (الأجنلا) ، بمصر وأن

(١) لم يذكر عبد اللطيف البغدادي في الرحلة أن المرة من الأجنلا ، بل ذكر أنها ذات مال ويسار وذكر بأن زوجها كان غائبا في الخدمة . الإفادة والاعتبار ، ٥١ .

(٢) رحلة عبد اللطيف البغدادي ١٨ ، ١٩ .

(٣) رحلة عبد اللطيف البغدادي ، ١٩ ، جريدة المصري اليوم مقال بعنوان (الرحالة عبد اللطيف البغدادي: في مصر رأيت بلاد نمنم) الجمعة ٩ فبراير ٢٠٠٧ م العدد (٩٧١) .

مثل هذه الجرائم البشعة التي وقعت بمصر تعود إلى هؤلاء الذين سكنوا بمصر وبرغم ذلك استحضروا معهم تراث الثقافة البدائية، وهذا التفسير وإن كان هو الأقرب للواقع ، لكن البغدادي قد أفاض في ذكر هذه الوقائع البشعة حتى صورها بأنه أصبحت سمة عامة للمجتمع – كما سبق أن قدمت – .

ولعل وجود ظاهرة أكل لحوم البشر (الآدميين) يعود إلى :

١- وجود بعض القبائل الأفريقية في مصر مثل التجرانيين والأجنلا ممن استحضروا معهم تراث الثقافة البدائية كأكل لحوم البشر أو الميتات والجيف .

٢- وجود القليل من هذه الأمور بين الرّعاعُ والمجرمين نتيجة شدة المجاعة وكانت السلطة الحاكمة تتصدى لهؤلاء بكل قوة وحزم ، حتى أنها كانت تأمر بإحراق مرتكبي مثل هذه الجرائم .

أيضا يقدم البغدادي مأساة أخرى انتشرت بالمجتمع المصري – على زعمه – وهي مسألة بيع الأحرار والأبناء حيث يقول : " وأما بيع الأحرار فشاع وذاع عند من لا يراقب الله، حتى تُباع الجارية الحسناء بدراهم معدودة، وعُرض عليَّ جاريتان مراهقتان بدينار واحد، ورأيتُ مرة أخرى جاريتين إحداهما بكر ينادَى عليها بأحد عشر درهما . وسألتني امرأة أن أشتري ابنتها وكانت جميلة دون البلوغ، بخمسة دراهم فعرَّفتها أن ذلك حرام، فقالت خذها هدية، وكثيرا ما يترامى النساء والوِلدان الذين فيهم صباحة على الناس بأن يشتروهم أو يبيعوهم، وقد استحل ذلك خلقٌ عظيم ووصل سبيهم إلى العراق وأعماق خراسان وغير ذلك " [١] .

أما موضوع بيع الرجل أو المرأة لأطفالهما فمن الأمور التي لا تقبلها النفوس السوية مهما تعرضت للجوع أو الفقر ، ولا يُقبل عليها إلا ضعيف النفس

(١) الإفادة والاعتبار ، ٥٤ .

ومع ما في هذا الأمر من بشاعة لكنه يمكن أن يقع ، كما أخبر بذلك البغدادي عن تجربته الشخصية عن المرأة التي عرضت عليه ابنتها ، ولكن ما أنكره من حديث البغدادي هو انتشار مثل هذا الأمر وشيوعه في المجتمع المصري .

الخاتمـــة

وبعد الانتهاء من هذا الموضوع (المجاعة في مصر في العصر الأيوبي كما صورها الرحالة عبد اللطيف البغدادي) أجمل ما توصلت إليه من نتائج فيما يلي:

١- وضح البحث حرص الرحالة عبد اللطيف البغدادي على العلم وسعيه في طلبه وتمثل ذلك في الرحلات العديدة التي قام بها إلى البلاد الإسلامية المختلفة .

٢- أكد البحث على أن البغدادي يعد من العلماء البارزين الذين ألفوا الكثير من المؤلفات وفي علوم مختلفة .

٣- وضح البحث آراء العلماء في عبد اللطيف البغدادي وثناء الكثير منهم عليه.

٤- كما رصد البحث العديد من الأقوال المنسوبة لعبد اللطيف البغدادي والتي تعد من الحكم والكلام المأثور .

٥- بين البحث أن عبد اللطيف البغدادي من الأطباء البارزين الذين كان لهم باع طويل في مجال الطب حتى أنه قام بتصحيح بعض الأخطاء الطبية السائدة حتى عصره .

٦- بين البحث مكانة البغدادي الطبية ونبوغه في مجال الطب وتصحيحه لبعض أخطاء من سبقوه في هذا المجال .

٧- لخص البحث مشاهدات البغدادي في مصر قبل المجاعة .

٨- وضح البحث مدى تمكن الرحالة عبد اللطيف البغدادي في مجال الجغرافيا ويتضح ذلك من خلال الوصف الجغرافي الدقيق لمصر .

٩- رصد البحث بعض الخرافات التي ذكرها الرحالة عبد اللطيف البغدادي من كلام العامة بدون نقد أو تفنيد بل أقرها عن موضوع توالد الفئران من الطين.

١٠- بين البحث مدى تمكن ذلك الرحالة في مجال علم النبات ويبدو ذلك واضحا من خلال الفصل الذي خصصه للحديث عن النبات في مصر .

١١- ومع تمكن عبد اللطيف البغدادي في مجال علم النبات إلا أنه وقع في بعض الخرافات التي يذكرها العامة من دون أدلة وقرائن يصدقها العقل، وذلك مثل ما ادعاه عن أصل نبات الموز .

١٢- تعرض البحث بالنقد والتفنيد لادعاءات عبد اللطيف البغدادي في مسألتي :

- بناء سور القاهرة وقناطر الجيزة بأحجار الأهرام الصغيرة.
- أن عمرو بن العاص هو من أحرق مكتبة الإسكندرية.

١٣- رصد البحث تفاصيل المجاعة كما صورها البغدادي .

١٤- بين البحث أن روايات عبد اللطيف البغدادي عن المجاعة يشوبها العديد من المبالغات .

١٥- قسم البحث روايات الرحالة عبد اللطيف البغدادي إلى عدة أقسام :

أ- أكد البحث على أن هناك روايات يمكن القول بصحتها – بالرغم من بشاعتها – وهي الروايات التي رآها وشاهدها بنفسه .

ب- وأن هناك روايات لم يشاهدها بنفسه وإنما حكيت له وسمعها ، ولم يصرح باسم قائليها ومعظم هذه الروايات لا يمكن قبولها لما تحويه من مبالغات غير مقبولة .

ج- هناك روايات ذكرها مرسلة بدون أن ينسبها إلى راو أو يذكر من حدثه بها وهذه الروايات أيضا لا تقبل، لعدم المعرفة بصدق أو كذب نقلة هذه الأخبار، ولما تحويه من مبالغات.

د-وهناك روايات نص وصفها بأنها مزعومة ، وهذه الروايات أيضا لا تصدق.

هذا وبالله التوفيق ،،،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وهو حسبنا ونعم الوكيل،،،

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم جل من أنزله .

أولا : المصادر :

*ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبدالواحد الشيباني الجزري (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣ م) :

١- الكامل في التاريخ ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري ، الناشر: دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م ١٠ / ١٨١ .

*ابن الأثير الجزري (أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م)

٢- النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق : طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي ط/ المكتبة العلمية – بيروت ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

*الأزهري (أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري ت ٣٧٠ هـ / ٩٨١م) :

٣- تهذيب اللغة ، ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠١م .

*ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين، أبو العباس ابن أبي أصيبعة ت ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م) :

٤- عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، المحقق: الدكتور نزار رضا ، ط / دار مكتبة الحياة – بيروت .

*ابن أيبك (أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري ت ٧٣٦ هـ / ١٣٣٧ م) :

٥- كنز الدرر وجامع الغرر ، جـ ٧ تحقيق : د/ سعيد عبد الفتاح عاشور ، ط/ عيسى البابي الحلبي، ١٣٩١ هـ – ١٩٧٢ م.

*تاج الدين السبكي (تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي ت ٧٧١ هـ / ١٣٧٠ م) :

٦- طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق : د/ محمود محمد الطناحي ، د/ عبد الفتاح محمد الحلو ، ط / هجر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ .

*الجوهري (أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي ت ٣٩٣هـ / ١٠٠٣م) :

٧- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار ، ط/دار العلم للملايين– بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م

*حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله القسطنطيني العثماني ت ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧ م):
٨- سلم الوصول إلى طبقات الفحول ، تحقيق: محمود عبد القادر الأرناؤوط ، تقديم: أكمل الدين إحسان أوغلي ، ط/ مكتبة إرسيكا، إستانبول – تركيا ، ٢٠١٠ م.
*ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م):
٩- نزهة الألباب في الألقاب ، تحقيق : عبد العزيز محمد بن صالح السديري ، ط/ مكتبة الرشد – الرياض ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.
*الخليل بن أحمد (الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي ت ١٧٠هـ / ٧٨٦ م):
١٠- كتاب العين ، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي ، ط/ دار ومكتبة الهلال.
*الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ /١٣٤٧ م) :
١١- العبر في خبر من غبر، تحقيق: د/ صلاح الدين المنجد ، ط/ مطبعة حكومة الكويت ، ١٩٨٤ م .
١٢- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري ، ط/ دار الكتاب العربي–بيروت ، الطبعة: الثانية، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣م.
١٣- سير أعلام النبلاء ، تحقيق : مجموعة محققين بإشراف شعيب الأرناؤوط، ط/ مؤسسة الرسالة.
*الزمخشري (محمود بن عمر الزمخشري ت ٥٣٨ هـ / ١١٤٤ م) :
١٤- الفائق في غريب الحديث ، تحقيق : علي محمد البجاوي – محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط/ دار المعرفة – لبنان ، الطبعة الثانية.
*سبط بن الجوزي (شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قِزْأُوغلي بن عبد الله ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م):
١٥- مرآة الزمان في تواريخ الأعيان ، تحقيق : إبراهيم الزيبق ، ط/ دار الرسالة العالمية– دمشق ، الطبعة الأولى ١٤٣٤ هـ / ٢٠١٣ م.
*السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ٩١١هـ / ١٥٠٥ م):
١٦- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط/ المكتبة العصرية – صيدا.

١٧- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط/ دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي وشركاه – مصر ، الطبعة : الأولى ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م.

*ابن شاكر (محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) :

١٨- فوات الوفيات ، تحقيق : إحسان عباس ، ط/ دار صادر – بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٤م .

*أبو شامة (أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي ت ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٧ م) :

١٩- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تحقيق: إبراهيم الزيبق ، ط/ مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧ م

٢٠- تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، ط / دار الجيل – بيروت.

*الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣ م) :

٢١- الوافي بالوفيات ط/دار إحياء التراث – بيروت١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م .

*الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٢ م) :

٢٢- جامع البيان في تأويل القرآن ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، ط/ مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠م.

*ابن العبري (أبو الفرج جمال الدين ابن العبري ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦):

٢٣- تاريخ الزمان، تعريب : الأب إسحاق أرملة، ط/ دار المشرق – بيروت ، ١٩٩١م .

*ابن العماد (عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨ م) :

٢٤- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق : محمود الأرناؤوط ، تخريج : عبد القادر الأرناؤوط ، ط/ دار ابن كثير– دمشق ، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م.

*العيني (بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى العيني ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) :
٢٥- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (العصر الأيوبي) ، تحقيق : محمود رزق محمود ، ط/ مطبعة دار الكتب والوثائق القومية – القاهرة، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م.
*الفيومي (أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري ت ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م) :
٢٦- المصباح المنير ، تحقيق :يوسف الشيخ محمد ، ط/ المكتبة العصرية – بيروت.
*ابن قاضي شهبة (أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة ت ٨٥١ هـ / ١٤٤٨ م) :
٢٧- طبقات الشافعية ، تحقيق : د/ الحافظ عبد العليم خان ، ط/ عالم الكتب – بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ .
*ابن القطاع الصقلي (أبو القاسم علي بن جعفر السعدي ت ٥١٥ هـ / ١١٢١ م) :
٢٨- كتاب الأفعال ، ط/ عالم الكتب – بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.
*القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨ م) :
٢٩- إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تحقيق : إبراهيم شمس الدين ، ط/دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م.
٣٠- إنباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط/ دار الفكر العربي – القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية – بيروت ، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٢م.
*ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري الدمشقي ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٣ م):
٣١- البداية والنهاية ، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي ، ط/ دار هجر للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى، ٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م.
*عبد اللطيف البغدادي (عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي بن أبي سعد ت ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م):
٣٢- الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، ط/ مطبعة وادي النيل ، الطبعة الأولى ١٢٨٦هـ .

٣٣- رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر أو كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، تقديم : د/ عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، ط/ الهيئة العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ١٩٩٨ م ، سلسلة الألف كتاب الثاني رقم (٣١٤).

*ابن منظور (محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ت ٧١١ هـ / ١٣١١ م) :

٣٤- لسان العرب ، ط/ دار صادر – بيروت.

*ابن نظيف الحموي (أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف الحموي ت ق ٧ هـ / ١٣ م) :

٣٥- التاريخ المنصوري (تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان) ، تحقيق: دكتور أبو العبد دودو ، ط/ مطبعة الحجاز / مطبوعات مجمع اللغة العربية – دمشق.

*ابن واصل (محمَّد بن سالم بن نصر الله بن سالم ابن واصل ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨ م) :

٣٦- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق: الدكتور جمال الدين الشيال ، ط/ دار الكتب والوثائق القومية – المطبعة الأميرية، القاهرة – جمهورية مصر العربية ، ١٣٧٧هـ/١٩٥٧ م.

*ياقوت الحموي (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م):

٣٧- معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) ، تحقيق : إحسان عباس ، ط/ دار الغرب الإسلامي– بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م .

*اليونيني (قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد اليونيني ت ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م):

٣٨- ذيل مرآة الزمان ، بعناية: وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م ، ١٨٠/٢ .

ثانيا : المراجع :

*إبراهيم مصطفى ، أحمد الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد النجار :

٣٩- المعجم الوسيط ، تحقيق : مجمع اللغة العربية ، ط/دار الدعوة.

*إدريس إبراهيم جميل :

٤٠- الحباب ملوك البحر وأهل السادة، ط/ مكتبة الثقافة – الدوحة.

*ادوارد فنديك (ت ١٣١٣هـ / ١٨٩٥ م) :

٤١- اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ، ط/ دار صادر – بيروت ، ١٨٩٦م .

*إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي (ت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩ م):
٤٢- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، ط/ طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية استانبول ١٩٥١م .
*ألفريد . ج . بتلر :
٤٣- فتح العرب لمصر ، تعريب : محمد فريد أبو حديد بك ، ط/ مكتبة مدبولي – القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م.
*جوستاف لوبون :
٤٤- حضارة العرب ، ترجمة: عادل زعيتر، ط/ مؤسسة هنداوي للنشر والثقافة – القاهرة ، ٢٠١٢ م.
*خير الدين الزركلي (ت ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م) :
٤٥- الأعلام قاموس تراجم لاشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط/ دار العلم للملايين – بيروت ، الطبعة الخامسة ١٩٨٠م ٤ / ٦١ .
*عبد الكريم شحادة :
٤٦- صفحات من تاريخ التراث الطبي العربي الإسلامي ، ط/ منظمة الصحة العالمية أكاديميا – بيروت .
*عزيز سوريال عطية :
٤٧- تاريخ المسيحية الشرقية ، ترجمة : إسحاق عبيد ، ط/ المجلس الأعلى للثقافة ، الطبعة الأولى ٢٠٠٥ م ، المشروع القومي للترجمة العدد (٨٩٢).
*علي الرضا قره بلوط – أحمد طوران قره بلوط :
٤٨- معجم التاريخ «التراث الإسلامي في مكتبات العالم (المخطوطات والمطبوعات) ، ط/ دار العقبة، قيصري – تركيا ، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م .
*محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣ م):
٤٩- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، ط/ دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع – بيروت ، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م

*نقولا زيادة:
٥٠- الجغرافيا والرحلات عند العرب، ط/ الشركة العالمية للكتاب دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٧م.
*يوسف بن إليان بن موسى سركيس (ت ١٣٥١هـ / ١٩٣٣ م) :
٥١- معجم المطبوعات العربية والمعربة ، ط / مطبعة سركيس – مصر ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٨م . ص ١٢٩٢.

ثالثا : الدوريات :

٥٢- جريدة الدستور : مقال للواء حمدي البطران بعنوان (أدب الرحلات) ، الاثنين ٢٥ يونيو ٢٠١٨ م .
٥٣- جريدة المصري اليوم : مقال بعنوان (الرحالة عبد اللطيف البغدادي: في مصر رأيت بلاد نمنم) الجمعة ٩ فبراير ٢٠٠٧ م العدد (٩٧١) .